الفعل الحر

*

ان أصل الفعل هو الامكان ، ولا تحقق لممكن الا بالاختيار. والاختيار عملية اخذ ونبذ في آن واحد : أخذ وجه او بعض اوجه من الممكن ، ونبذ وجوهه الأخرى؛ وهذا النبذ بالذات مصدر للعدم ،إذ يحرم بعض اوجه الممكن من التحقق العيني ، ويلقيها في حيز اللاوجود. لذا فان عملية الاختيار مثيرة للقلق بحكم اتصالها بفكرة العدم ، بحيث يصح اعتبار القلق كاشفاً للحرية ، او بتعبير آخر ، « الوعي الخاص لها » فهو بهذه الصفة من شأنه ان يلقي لنا ضوءاً على طبيعة الفعل الحر.

أما دلالة القلق على الحرية ، فتتضح لنا اذا ميزناه من الخوف . فالخوف خوف من موجودات العالم ، واما القلق فقلق امام الذات . وفي الموقف الخطر يختلف شعور الانسان بين الخوف والقلق ، تبعاً لاعتبارنا لتأثير الموقف في الانسان او لتأثير الانسان في الموقف . فهو في الاعتبار الاول يجزع من الاذى ، وهو قد يلحق به من خارج ، ولكنه في الاعتبار الثاني « يجزع من ان يجزع » — اذا شئت — من الاذى ، وهذا شعور ينشأ تجاه ذاته ، بالنسبة لما سيكون تصرفها لمجابهة الموقف. والواقع انه لا يستطيع ان يخاف ويقلق في وقت واحد ، لان لكلا الشعورين مصدراً مناقضاً للآخر ، بحيث ان القلق يبرز عادة بعد الخوف او قبله . ويؤيد هذا وجود القلق الخالص من أية شائبة خطر ، كما هي الحال مثلاً في مواقف الحرص على احراز تقرير الناس .

ولئن كان لهذا التمييز ان يدلنا على شيء فعلى ان ميدان القلق هو الحرية الانسانية وحدها : فهو متركز في حلبة ممكنات الذات التي تشكل اصل حريتها ، ولا علاقة له بممكنات العالم كقانون التعين الكوني و كتأثير الذوات الاخرى ونحوه . وما يستشعره الانسان من قلق خلال عملية الاختيار ، ناتج عن انزلاق العدم الى وجوده بسبب حريته : فمجرد تنازله عن احد ممكناته إسقاط له في العدم ، في حين انه جزء من ماهيته ؛ ومجرد انتخابه احد ممكناته إسقاط في العدم كذلك لبقية الممكنات الاخرى . بل انه يشعر بأن كيانه الحاضر بأسره « هو » ماضيه ومستقبله سواء بسواء على صورة انعدام : فهو ليس بكائن ما سيكون ، اذ ان زماناً ما يفصله عنه ، ولان حاضره وهو القلق ليس اساس كيانه المستقبل الذي قد يأتي نقيض ذلك ، ولانه ليس لديه اي شاهد عيني ينبئه على التحديد بما سيؤول اليه ؛ ومع ذلك فهو ، بالنظر لاهتمامه بما سيكون ، اي لصلته به كأنه في الحاضر ، ولكن على صعيد « عدم كونه » . واهم من هذا هو ان العدم الذي ينزلق بينه وبين مستقبله حاجز منيع ، ومناعته عائدة الى كونه العدم بالذات فلكي نجتاز حاجزاً ينبغي ان يكون هذا الحاجز شيئاً ما ، اما اذا كان « لا شيء » ، فاننا لا ندري عندئذ ما الذي يجب التغلب عليه ، لانه على وجه الدقة « لا شيء » . اما ماضيه فشأنه ايضاً كشأن مستقبله بالنسبة لوعيه ، حتى ان وعي الذات على هذا النحو يمكن اتخاذه الصفة الاساسية للقلق .

إزاء احتدام القلق ، لا يكون للانسان مخرج من بحران الكيان المتناقض ، ومن التذبذب فيما بين مجموعة امكانياته الحبلى ، الا ان يتحمل تبعة الاختيار فيختار ، او ان يستسلم لجمود السلبية فتقرر مصيره ممكنات العالم من خارج. ولما كان الشعور بالتبعة وليد الاحساس بعدم تعين الفعل بغير ارادة المرء بالذات ، فالاختيار اقدام على المخاطرة على صعيدين اثنين: دخول حومة المجهول وقبول نقصان الوجود بنبذ بعض ممكناته ؛ وبغير المخاطرة لا سبيل الى تحقق الاختيار ، بل يؤدي تأرجح الذات بين ممكناتها الى عجزها عن تحقيق شيء منها ، ومن ثم تتحول الى « أداة » تكيفها ممكنات العالم الخارجي ، وذلك هو خسران الحرية الذي ليس إلا الفناء بحق.

لذا جاز لنا القول ان ما على الانسان بوصفه حرية خالصة ان يأتي من فعل ، انما هو المخاطرة بعينها . وهذا الفعل بحكم مروره بحالة القلق الذي ينبىء عن طبيعته ، صورة من التوتر بين الوجود واللاوجود ، ومثال للصراع الدائم ، وهو بالتالي العلامة المثلى للحياة. ويستنتج من هذا ان توكيد الذات بالفعل متناوب وليس مستمراً ، وان ما نادى به بعضهم من توكيد للذات متصل دائم ، ليس الا صيغة براقة من الصيغ اللفظية التي لا غناء فيها ، اذ انه فضلاً عن زيف هذا التوكيد ، لا يحق للمرء ان يدعي الوقوف من أمر نفسه موقفاً متيناً يسمح له بكشفها بجلاء والحكم عليها مع اليقين. ليس بامكاني بلوغ اليقين في شيء ، ولذا يجب ان أكره نفسي دائماً وابداً على الشك. يجب ان اعيش مع الامل بأني في وقت من الاوقات ، وعلى وجه من الوجوه لا استطيع التكهن به ، سأستقبل

البير كامو ومصير الانسان

بقلم نهاد التكرلي

✱

في سنة ١٩٤٢ ظهرت في فرنسا قصة موجزة تدعى « الغريب » مذيلة بتوقيع كاتب شاب لم يبلغ الثلاثين من العمر . ولم يكن هـذا الشاب قد اخرج قبلًا سوى كتيّبين صغيرين يدعى الاول «القفا والوجه» والثاني « الزواج » . ثم اعقب هذه القصة الصغيرة بمدة قصيرة تعليق ايديولوجي باسم « اسطورة سيزيف » . وكان في هـذا الكفاية لفرض اسم البير كامو على الادب الفرنسي المعاصر باسره ثم جاءت قصة (الطاعون) وبعدها بمدة كتاب « الانسان المتمرد » ، ليؤكدان سيادة هذا الكاتب ومكانته الخارقة في الادب العالمي والفكر الاوربي الحديث . هذا فضلًا عن ان بعض مواضيعه الفلسفية قـد حملت مرات عديدة خلال هذه الفـترة الى المسرح ، فمثلت له مسرحيات « سوء التفاهم » و « كاليجولا » و « العادلون » و « حالة الحصار » .

وليس بوسعنا في هـذا المجال الضيق الا ان نمر مروراً عابراً بهـذه الشخصية الفكرية المتعددة الجوانب ، محاولين تتبع تطوراتها في المراحل الرئيسية التي قطعتهـا من البـداية حتى الوقت الحاضر .

« لا توجد هنالك سوى مشكلة فلسفية واحدة خطيرة حقاً ، وتلك هي الانتحار » . هذا ما يبدأ به البير كامو كتابه الفلسفي « اسطورة سيزيف » . فالمشكلة الرئيسية لديه هي :

هل لحياة الانسان معنى وقيمة أم لا؟ وفي الحالة التي لا نتعرف فيها على مثل هذا المعنى تكون المسئلة ان نقرر : هل ستكون لدينا الشجاعة الكافية على ان نقول « لا » للحياة ؟ ذلك ان الحياة اذا كانت سيئة وباطلة وسخيفة ، فمن البلادة والجبن ان يقاسيها الانسان بصورة سلبية وان ينتظر مجيء الموت الذي قد يطول مجيئه او يقصر من دون ان يضع حداً لها . يجب على الكرامة الانسانية ان ترفض لعبة لا تريد ان تنخدع بها وان تخرج منها بفعل ارادي . والحياة كما يراها فكر كامو عبث مجردة من كل معنى وهي تدفع هذا الفكر نحو العاقبة النهائية وتجعله يبحث عن « الحد الدقيق الذي يكون فيه الانتحار حلًا لعبث الحياة » . وهذه هي المشكلة التي يبحثها كامو في « اسطورة سيزيف » . ولكننا سنرى بعد قليل ان الانتحار يرفض رغم كل شيء وان كامو ينتهي من استدلاله الى حل يضعه لمشكلة الحياة . غير اننا قبل بحث هذا الحل نود ان نبين بان كامو اراد ان يعبر في احـد الايام عن الاغراء الكامن في الاستسلام لعبث الحياة وفي الخضوع لمنطق الانتحار: ما دامت الحيـاة عبثاً بغيضاً فـلا يوجد شيء يمكن فعله احسن من تدميرها . وهـذه هي العقدة التي تتألف منها مسرحية « سوء التفاهم » وخلاصة موضوع هذه المسرحية : ان « مارتا » تلك الفتاة الكئيبة قد حاولت ان تهب حياتها معنى ولكن بصورة

ذاتي من جديد، بعد ان أكون قد انفصلت عنها. والحقيقة ان طابع الاتصال والديمومة لا يسم التوكيد ذاته، بل نشدان التوكيد.

وهكذا نجد من الناحية التقويمية ، ان الرجل الرجل ، أعني الانسان الحر حقاً ، ليس من أكد ذاته باستمرار ، لان ذلك غير قابل للتحقق ، وبالتالي غير جدير بالطلب ، وإنما هو مَن ، في استجابته الى واقع وجوده الذي جوهره التوتر ، يرتفع بهذا التوتر إلى أعلى مرتبة ممكنة من العنف والشدة ، وذلك باختيار أخطر الممكنات وأشرفها ، وإسقاط أيسر الممكنات وأمنعها على السقوط في العدم .

محمد وهبي

وحشية . فهي في النزل الذي يحتل مكاناً من اوربا المركزية تعيش مع امها وتحلم ببلاد يغمرها النور والسعادة . ولكي يتسنى لها الذهاب الى هذه البلاد في يوم من الايام ولكي توفر دراهم السفر ترتكب بمساعدة امها جرائم متعاقبة في هذا النزل. فهما تقتلان المسافرين الذين ينزلون في فندقها وتخفيان جثثهم بالقائها ليلًا في النهر المجاور بعد ربطها بحجر ثقيل . ويصادف ان يكون احد هؤلاء المسافرين اخاً لمارتا ترك دراهم منذ عشرين سنة ، فتقتلانه من دون ان تعرفاه . وعندما ينكشف «سوء التفاهم» تذهب الام لترمي بنفسها في النهر الذي اغرقت فيه ابنها قبل بضع ساعات ، بينما تجد مارتا نفسها وجهاً لوجه مع زوجة اخيها التي جاءت للبحث عن زوجها. وفي هذه المرأة يتجسد البكاء على حياة سعيدة تمّ الوصول اليها ولم تعد تريد ان تفلت من بين يديها. وهنا يكمن « سوء التفاهم » الحقيقي الذي تريد مارتا القاسية ازالته بكل عنف ووحشية. ان بلاد السعادة قد أفلتت منها ، فليكن ! لا اهمية لذلك ، غير انها لا تعتبر نفسها سجينة جرائمها فحسب ، بل سجينة عبث هذه الجرائم وعدم فائدتها . فلتصف حسابها مع الحياة على الاقل بصورة تامة . انها ستقتل نفسها هي ايضاً ، ولكنها ستقتل قبل ذلك في الشخص الوحيد الذي سيبقى بعد هذه المأساة ، الوهم بوجود معنى للحياة. وفي ذروة هذا المنظر الشنيع يذكر كامو عبارات اخاذة . تقول مارتا لزوجة اخيها : « لا استطيع ان اموت وانا اترك لك هذه الفكرة بانك على صواب وبان الحب ليس عبثاً وبأن هذا حادث عرضي . لانه اذا كان الامر كذلك فسنكون عندئذ في نطاق النظام . » بينما لا يوجد نظام للحياة ومن العبث بصورة تامة ان نتوق اليه . ثم تقول : « ما فائدة هذا النداء العظيم للوجود وهذا التنبيه للنفوس ؟ لماذا نصرخ مندفعين نحو البحر او نحو الحب؟ان هذا تافه يثير الاستهزاء». فليكن الانسان اذن غريباً في هذه الحياة او فليختر الموت .

« توسلي بالهك ان يجعلك شبيهة بالحجر . ففي هذا تكمن السعادة التي اختارها لنفسه وهي السعادة الحقيقية الوحيدة . افعلي مثله وتصامي عن جميع الصرخات والحقي بالحجر ما دام هنالك متسع من الوقت. واذا كنت أجبن من ان تلجي هذا السلام الاعمى . فتعالي اذن والحقي بنا في دارنا المشتركة (اي النهر الذي سيلقي جميع افراد المسرحية بانفسهم فيه من اجل الخلاص .) ان عليك ان تختاري بين سعادة الحجر الحرقاء وبين الفراش الدبق الذي ننتظرك عليه » .

هذا هو اذن حل الحياة السخيفة المجردة من المعنى بواسطة الانتحار : وهو ليس انتحاراً شخصياً وايجابياً بل انتحار يقضي به المبدأ . ولذلك نرى ان الانسان الذي يدمر نفسه يدعو الانسانية جمعاء الى ان تتبعه في السير في هذا الطريق نحو الموت.

لكننا قلنا إن كامو لا يرضى بهذا الحل . وهو اذا كان قد بحثه في اول كتابه فلكي يرفضه ويبعده بواسطة استدلال بارع دقيق . وهنا لا بد لنا ان نتمهل قليلًا عند « اسطورة سيزيف» لنرى كيف يتوصل كامو الى هذه النتيجة التي يرفض بها الانتحار : لا شك ان الحياة عبث مجردة من كل معنى . غير ان الانسان الذي يلجأ الى الموت ضد عبث الحياة يرفض الحياة نفسها من دون شك . وهو برفضه اياها لانها سخيفة وعبث انما يعترف بالعجز ازاء هذا العبث . انه اقرار منه بان العبث قد قهره وانه مستسلم اليه بصورة كلية ما دام قد لجأ الى أسخف شيء في الحياة وهو نهايتها السلبية اي الموت. فاختيار الموت اذن ليس إجابة (ايجابية) على مشكلة الحياة بل هو استسلام تام من دون قيد او شرط لهذا الخصم العنيد . وهذا الحل لا يناسب فكر كامو لأن آثاره الادبية ليست مؤسسة على روح القبول بل على العكس على روح التمرد. وقد كتب جورج باتاي يقول : « ان كامو يقيم الاخلاق على اساس من التمرد » ثم يضيف « ... وان هذا التمرد يعبر عن استحالة رد الانسان الى قوانين وحدود معينة ، اياً كانت هذه القوانين وهذه الحدود » .

واول هذه الحدود التي يرفضها الانسان هو عبث الحياة . وحتى لو كان هذا العبث هو البديهية الاولى التي يؤخذ بها عقل الانسان عندما يتأمل الحياة فان هذا العبث لن يزيده الا تصميماً وتمرداً على مواجهته وجهاً لوجه من دون حاجة للتخلص من الحياة . وهكذا تنقلب المشكلة رأساً على عقب ويبدو حل الانتحار مُبعداً بنفس الشدة التي فرضها بها المنطق في بادىء الامر . وهذا ما يتجلى في هذه الصفحة من كتاب (اسطورة سيزيف) التي نرى لزوماً في اطالة الاقتباس منها :

« كنا نبحث سابقاً في معرفة ما اذا كان من الواجب ان يكون للحياة معنى لكي نحياها . ويبدو هنا على العكس اننا سنحسن حياتها كلما ازدادت خلواً من المعنى . فمعنى ان يحيا الانسان تجربة او مصيراً هو ان يقبله بصورة تامة . ومن ثم

فان الانسان لن يحيا هذا المصير بعد ان يعرف انه عبث إذا لم يصنع كل شيء من اجل ان يبقى هذا العبث الذي كشف عنه الشعور ماثلاً امامه . وان نفي احد طرفي التقابل الذي يجابه الانسان معناه التخلص منه . وهكذا فالغاء التمرد الشعوري هو حذف للمشكلة . وان موضوع الثورة الدائمة ينتقل هكذا الى التجربة الفردية . فان يحيا الانسان هو ان يُحيي العبث . واحياؤه معناه قبل كل شيء النظر اليـــه . فالعبث بعكس يوريديس،(١) لا يموت إلا عندما نشيح بوجهنا عنه . وهكذا فان احد المواقف الفلسفية المتماسكة الوحيدة ، هو التمرد ... وهو ليس توقاناً ورغبة بل هو مجرد من الامل. وهذا التمرد هو التأكد من مصير ساحق اكثر من ان يكون الاستسلام الذي يمكن ان يصاحب مثل هذا المصير». فالتمرد اذن مجرد من الأمل وهـذا هو السبب في ان عالم كامو مجرد من الامل فهو عالم الحياة المغلقة. وفي هذا العالم المغلق يرد كامو على العبث (بتمردي وحريتي وهواي) كما يقول . ثم يضيف قـــائلاً : « وبواسطة اللعبة الوحيدة للشعور احوّل ما كان دعوة للموت الى قاعدة للحياة — وارفض الانتحار »(٢).

واكثر من ذلك ، فان الانتحار الذي كان يبدو حـــلاً للمشكلة يصبح منذ الآن طريقة للهزيمة ، ونوعاً من الغش الذي يستخدمه الحي ازاء الحياة . فاللجوء الى الموت هو احداث ثغرة خائنة في السور الذي يحيط بالحياة وهو بالنسبة لكامو كاللجوء الى امل في الحياة الابدية . « يجد المرء في المتاحف الايطالية حواجز صغيرة مصورة كان القس يمسك بها امام اوجه المحكوم عليهم بالاعدام لكي يخفي المشنقة عن انظارهم . والقفزة بجميع اشكالها: الارتقاء في ما هو آلهي وخالد والاستسلام الى الاوهام اليومية واوهام الفكر . كل هذه الحواجز تخفي العبث . غير ان هنالك موظفين بدون حواجز واني اريـــد التحدث عن هؤلاء » . وليس من شك في ان كامو لا ينكر بان الحياة اذا اخذت على هذا الشكل تثير السخرية . غير انه يطالب بقيمة حكمية واقعية لكي تكون للمرء الشجاعة على لعب هذه اللعبة.

وتمرد كامو ليس حركة جنونية بل هو هـذه الحكمة . « ليس من شك في ان هؤلاء الامراء لا مملكة لهم لكن لهم على الآخرين هـــذا الامتياز وهو انهم يعرفون بان جميع الممالك وهمية . انهم يعرفون وهذه هي كل عظمتهم. ومن العبث ان يراد التحدث عن شقائهم الخفي او عن طعم الرماد الذي يسببه زوال الوهم . ان الحرمان من الامل ليس معناه اليأس . وان نيران الارض تساوي عطور السماء . فنحن جميعاً ، لا انا ولا اي شخص ، نستطيع الحكم عليهم هنـا . انهم لا ينشدون ان يكونوا أحسن بـل يحاولون ان يكونوا دقيقين في منطقهم . واذا كانت كلمة حكيم تنطبق على الانسان الذي يعيش على ما يملك من دون الارتقاء في التفكير بما لا يملك فهؤلاء هم الحكماء » .

وتلك هي في الواقع النتيجة التي ينتهي اليها كتاب«اسطورة سيزيف » . فالموت بعد ان اصبح مبعداً بارادة الانسان أبعد معـه الشر الوحيد الذي لا يقاوم . « والذي يبقى هو مصير ليس فيه سوى ان عاقبته محتومة . وخارج هـذا القدر المحتوم الوحيد للموت يكون كل شيء من مرح وسعادة حرية » .

وحساسية العبث هذه ، التي وصفتها « اسطورة سيزيف » بصورة تجريدية قـــد وجدت تجسيداً لها عند كامو في قصته « الغريب » التي قال عنها الناقد الفرنسي غايتان بيكون « لو لم تبق خلال بضعة قرون شهادة عن الانسان الحديث سوى هذه القصة القصيرة، لأخذت عن هذا الانسان فكرة كافية. كما يكفي الآن ان نقرأ « رينيه » لكي نعرف الانسان الرومانتيكي » . فمرسو — بطل القصة — هو انسان العبث ككل واحد منا في هذا العصر. الانسان الذي يحمل في نفسه رغبة في ان يجد تبريراً وقيمة لوجوده فلا يكتشف ما يتمنى . واذا كان الانسان لا يستطيع ان يوفق بين رغبته في ان يحيا حياة ذات قيمة في كون معقول ، وبين الواقع الموضوعي لعالم وحياة لا يمكن ردهما الى هذا المطلب فلا يسعه الا ان ينساب خارج ذاته وان يصبح غير مكترث ، غريباً عن نفسه . وهذه هي حالة مرسو. فهو في اليوم التالي لوفاة امه يستحم في البحر ويبدأ في تكوين علاقة غرامية مـع عشيقته ويذهب لكي يضحك في فلم هزلي . وهو يقتـــل اعرابياً « بسبب الشمس » ويؤكد في الليلة التي تسبق تنفيذ حكم الاعدام فيه بانه«كان سعيداً ولا يزال كذلك» ويتمنى ان يكون هنالك كثير من المتفرجين حول المشنقة

(١) يوريديس Eurydice : — زوجة (اورفيه) التي الفت بها الآلهة في الجحيم واشترطت عـلى اورفيه الذي جاء لانقاذها بان يسير امامها ولا يلتفت الى زوجته حتى يجتازا تخوم مملكة الظلام. ولكن اورفيه لم يف بهذا الوعد ونظر الى زوجته المرة الاخيرة فصعقه (زيوس) .

(٢) (اسطورة سيزيف) Le Mythe de Sisyphe ص:(٧٦-٧٧)

لكي « يستقبلوه بصرخات الحقد والكراهية » . فهو في عالم العبث هذا لا يقتل نفسه ولكنه يترك نفسه يحكم عليه بالاعدام وهـذه هي الصورة التي يقدمها كامو لرجل العبث في قصة «الغريب» . هذا البريء الكبير الذي يذكرنا بالامير «موشكين» بطل دستويفسكي .

غير ان فكرة العبث التي تحللها عقلياً « اسطورة سيزيف » ويصورها روائياً مرسو بطل « الغريب » ليست سوى مرحلة في تفكير كامو . مرحلة يجب اجتيازها والانتقال منهـا الى مرحلة اخرى اكثر انسانية .

لقد قلنا إن كامو ينتهي في كتابه « اسطورة سيزيف » الى ضرورة مواجهة العبث ونبذ المهارب جميعها : الانتحار والايمان الديني والامل . وهو بذلك يؤسس اخلاقاً قيمتها العليا الوضوح وصفاء الذهن : اي ان هنالك بطولة في ان يحيا الانسان الحياة بشعور كامل وفي ان يواجه العبث في نور ساطع . وهـذه الاخلاق اخلاق شدة واقبال على الحياة لا اخلاق مأساة . فما دام كل شيء لا معنى له فان القيمة الوحيدة الممكنة هي (الاكثر) وليس (الاحسن) . « ان اخلاق انسان معين وسلم قيمه لا معنى لهما الا بالكمية وبتنوع التجارب التي يتاح له ان يكدسها » ولكن كامو كما قلنا لا يقنع بهذه المرحلة ، مرحلة العبث ، ولا بهذه الاخلاق بل يريد اجتيازها الى مرحلة اخرى . ولذلك نراه يعلن في كراسته « ملاحظات حول التمرد » اللاحقـة لسيزيف انتهاء هـذه المرحلة والانتقال منها الى مرحلة جديدة فيقول : « ان العبث متناقض في وجوده . فهو في الواقع يبعد الاحكام التقويمية بينما الاحكام التقويمية كائنة . وهي كائنة لانها مرتبطة بواقعة الوجود نفسها . » فالانسان في عالم اللامعنى هذا لا يبقى يعيش كالبهيمة بل هو يظهر معنى بحياته في هـذا العالم وعمله فيه . وهذا المعنى تفجره تجربة ممتازة : هي تجربة التمرد . وهذا التمرد يبرهن لنا باننا لا نقنع بما هو غير ممكن القبول وباننا لا نستطيع ان نسمح بكل شيء وأن هنالك حصة تستحق الدفاع عنها ، وهـذه الحصة لا تعود للفرد فقـط ، بل للانسان . وهكذا فالتمرد يكشف في نفس الوقت عن القيمة وعن صفته الضرورية : وهي العمومية . « فالفرد ليس وحده هـذه القيمة التي يريد الدفاع عنها . بل يجب ان يوجد البشر جميعهم لتركيبها وان الانسان في التمرد يجتاز نفسه نحو الغير » والبير كامو يقول في « رسائل الى صديق الماني » . « اني مستمر على الاعتقاد بان هذا العالم لا يملك معنى عالياً . ولكني اعرف بان هنالك شيئاً فيه يملك معنى ، وهذا الشيء هو الانسان لانه الوحيد الذي يتطلب مثل هذا المعنى . وان العالم يملك عـلى الاقل حقيقة الانسان » .

وهذا التجاوز للعبث قد اعلنه اخيراً كتاب كامو «الانسان المتمرد» كما قامت به قصته «الطاعون» قبل ذلك ببضع سنين . ونحن نرى في كتاب « الطاعون» رمزاً للحالة الانسانية الخالدة بقدر ما فيه من اشارة للحوادث الاخيرة التي مرت بفرنسا اثناء الحرب الاخيرة والاحتلال الالماني . من الذي لا يرى في مدينة (وهران) التي صارت فريسة للوباء وانطوت على نفسها وأغلقت ابوابها على مأساة النفي والانفصال والاخوة والامل ، وفي شعب (وهران) الذي كان « جزء منه مكوماً في فوهة اتون وهو يتبخر على شكل دخان كثيف ، بينما الجزء الآخر محمل بسلاسل العجز والخوف ينتظر دوره» ، من الذي لا يرى في كل هـذا وصفاً لفرنسا وللشعب الفرنسي اثناء الاحتلال الألماني ؟ ومن الطبيعي ان تكون قصة كامو الاخيرة في جزء منها قصة عن « المقاومة » ما دام المؤلف قد اكتشف او تحقق من هذه القيم التي تعلنها القصة ، في حركة المقاومة نفسها التي ساهم فيها . وخلاصة القصة ان مدينة معينة في شمالي افريقيا تدعى «وهران» تصاب ببلية تهبط عليها فجأة وهي الطاعون فتنعزل عن العالم ويبدأ سكانها في مكافحة هذا الوباء الذي لا يعرفون له سبباً . وشخصيات القصة تناضل ضد هذا الوباء الذي لا تعرف له سبباً ومعنى وهي بعيشها في العبث تحيا ضد العبث ولا تستسلم له . وما يهم الكاتب هنا بالدرجة الاولى ليس العبث بل كيف يصبح الانسان قديساً من دون الايمان بالله . فالقصة بوصفها لهـذا الكفاح وبدعوتها لهذه المطالب الانسانية تضع قواعد اخلاقية . « فأن يؤدي الانسان مهنته » بالنسبة للدكتور ريو ، وان يكون مع الضحايا بالنسبة لتارو ، والا يكون مسؤولاً عن الشر وان يفهم : كل هذه قواعد اخلاقية . وهـذه هي القداسة التي تسعى شخصيات (الطاعون) للحصول عليها . فهؤلاء الاشخاص يكافحون في عـالم مليء بالوباء وهم يشعرون بضرورة النضال ضد نواقص هـذا العالم وبضرورة تقديم العلاج حسب امكانياتهم الانسانية . وهم بعملهم هـذا يدينون الجريمة ويضعون انفسهم في كل مناسبة الى جانب الضحايا . وهم يشكلون

– البقية في صفحة ٧٥ –

صبايا وشيوخ

✱

بَسَماتٌ خَطَرتْ   غمزت صرْعى الحَذَرْ
يا شموساً سَخَرت   بظــلالٍ تُحتضَر

✲

خطـراتٌ فَجَرت   وسَقَت سُودَ الشجرْ
وسوساتٌ سعَرَت   وَهَمَ مسلوب البصر

بانفعالاتٍ طوتْ
طيرةَ النهد الهلِع
وانفـــلاتات روت
رجّةَ الخصر الجشِع
والتفاتات غَـوَت
فهَدَت شوقاً فزِع:
حُلمَ منهوب البصر

القاهرة   بشر فارس

القصة القصيرة

بقلم سومرست موم

ترجمة احسان عباس

ooo

قبل سنوات عدة سئلت ان اجمع مختارات من القصص القصيرة فقرأت من اجل ذلك عدداً لعله يربي على الف قصة ، وفيما كنت اقوم بهذا العمل ، كانت تخطر لي بين الحين والحين افكار متقطعة حول القصة من حيث فكرتها وطريقة كتابتها ، وعن هذه الافكار أود ان اتحدث اليكم هذا اليوم.

حين بدأت اجمع تلك المختارات ، كان غرضي الاكيد ان اوضح كيف تطورت القصة القصيرة منذ بدء القرن التاسع عشر ، وكانت فكرتي ان اتتبع تطورها مثلما يدرس الحصان منذ ان كان حيوناً صغيراً ذا خمس اصابع يمرح في الغابات اثناء العصر النيوسيني الى ان اصبح ذلك الحيوان الجميل النبيل الذي لا يزال يكسب عيشاً شريفاً للمراهنين والعارفين بأسرار الخيول ، على الرغم من اتجاه عصرنا الحاضر نحو الآلة .

ولقد اخترت البدء بالقرن التاسع عشر لأن القصة القصيرة فيه استمدت لها طوابع مميزة لم تكن لها من قبل . حقاً ان قصصنا قصيرة كتبت قبل ذلك ، كالقصص الدينية الاغريقية الاصل ، والحكايات التهذيبية التي كانت شائعة في القرون الوسطى . والحكايات الخالدة في الف ليلة وليلة ؛ وفي خلال النهضة نما ميل عظيم الى القصص الموجز في كل من ايطاليا واسبانيا وفرنسا وانجلترا ومن امثلة هذا القصص الذي لم يندثر « ديكاميرون » لبوكاشيو ، و«العبر» لسرفانتس . غير ان هذا الميل تضاءل حين ظهرت القصة الطويلة ، ولم يعد بائعو الكتب يدفعون مبالغ طيبة في مجموعة من القصص القصيرة ، فأخذ المؤلفون ينظرون شزراً الى فن لا يأتيهم بالنقد او بالشهرة ، فاذا خطر لهم بين الحين والحين موضوع تمكن معالجته في مساحة صغيرة ، وكتبوه على شكل قصة قصيرة ، لم يدروا ماذا يفعلون به . فان عز عليهم ان يعدموه ادرجوه احياناً ، وبشيء من الكلفة المصطنعة في ثنايا قصصهم الطويلة . ولكن منذ بدء القرن التاسع عشر اصبح امام الجمهور نوع جديد من طرق النشر وذلك هو المجلة الحولية التي اكتسبت عندئذ شهرة كبيرة . ويبدو ان الحولية بدأت في المانيا وكانت تضم فيها متنوعات من الشعر والنثر وقدمت لقرائها — حيث نشأت — غذاء حقيقياً ؛ ونحن نعلم ان « غادة اورليان » لشلر ، و « هرمان ودوروثيا » لجوته ، نشرتا اول الامر في مجلات من هذا النوع ، فلما اخذ نجاح الحوليات يحفز الناشرين الانجليز الى تقليدها اعتمدوا على القصص القصيرة لكي يجتذبوا عدداً كافياً من القراء .

واحب ان احدثكم عن شأن من شئون الانشاء الادبي اغفله النقاد الذين من واجبهم ان يأخذوا بايدينا ويعلمونا ، فلم يطلعوا عليه الجمهور . تعرفون ان عند كل كاتب رغبة في الخلق ، ولكن لديه رغبة في ان يضع امام القراء نتيجة ما يعمل ، ورغبة اخرى في ان يكسب من وراء هذا العمل لقمة العيش (وهي رغبة لا ضرر منهم ولا تهم القارىء) . وعلى الجملة يرى الكاتب ان في مقدوره توجيه مواهبه الخالقة وجهات تمكنه من ان يحقق هذه الرغبات . وعلى الرغم من انني قد اصدم من كان يظن منكم ان الالهام عند الكاتب يجب الا يتأثر بالاعتبارات العملية فانني اقول : ان الكتاب يجدون انفسهم مضطرين الى ان يكتبوا النوع الذي يلقى بين الناس رواجاً . فاذا كانت المسرحيات ذات الشعر الحر المرسل هي التي تأتي للمؤلف بالشهرة والثروة فقد يكون من الصعب ان نجد شاباً من ذوي الاتجاهات الادبية لم يحاول ان يكتب مسرحية ذات خمسة فصول . وفي هذه الايام يكتب الشباب مسرحيات نثرية ، وقصصاً طويلة وقصيرة وما ذلك الا لان امكانيات النشر ومتطلبات الناشرين ذات أثر غير قليل في نوع المؤلفات التي تنتج في وقت من الاوقات . وإذن فحين تزدهر مجلات تفسح صدرها لقصص ذات طول معين فانه لا بد ان تُكتب قصص من ذلك الطول . فاذا اخذت تنشر قصصاً ولم توسع لها الا مساحة صغيرة فان ما يكتب من قصص يجيء على قدر تلك المساحة وليس في هذا ما يشين ذكره

لان المؤلف الكفء يستطيع ان يكتب قصة من الفي كلمة بنفس السهولة التي يكتب بها قصة من عشرة آلاف ، ولكنه يختار قصة ثانية او يعالج القصة نفسها بطريقة اخرى . ولقد كتب جي دي موباسان قصة « الميراث » وهي من ابعد قصصه شهرة وذيوعاً مرتين : مرة في بضع مئات من الكلمات من اجل جريدة ، ومرة اخرى في عدة آلاف من اجل مجلة . ولست اراني مغالياً حين اقول : انه في الاولى لم يخل بلفظة ضرورية ، كما انه لم يدس في الثانية لفظة واحدة من الحشو . ان طبيعة الواسطة التي يطالع بها الكاتب جمهوره من الامور التقليدية التي لا بد له من تقبلها ، وهو يستطيع ذلك على الجملة دون ان يجور على ميوله .

وحين هيأت الحوليات للكتاب وسائل يعرفون بها انفسهم الى الجمهور ، عن طريق القصة القصيرة ، اخذت القصص القصيرة تكثر وتتزايد لتؤدي غاية اجدى من مجرد التنشيط لرغبة القارىء اثناء قراءته لقصة طويلة ، ولقد قيلت يومئذ اشياء قاسية في الحولية ، وما تزال اشياء اقسى منها تقال في المجلة التي خلفت الحولية في الشيوع والاقبال ، ولكن لا يكاد احد ينكر ان ذلك الوفر الغني من القصص الذي نتج في القرن التاسع عشر انما كان نتيجة مباشرة لتلك الفرص التي هيأتها المجلات . وادى ذلك في امريكا الى نشأة مدرسة من الكتاب افرادها على غاية من المهارة والحذق والخصب حتى ادعى بعض من لا يعرف تاريخ الادب ان القصة القصيرة ابتكار امريكي — ذلك خطأ محض ، ولكنه لا يمنعنا من الاقرار بأن احداً لم يمارس هذا النوع من الفن بجد واجتهاد ، ولا توفر على درس اساليبه وفنيته وامكانياته بعناية اكثر مما فعله الكتاب الامريكيون في الولايات المتحدة . ولقد اعتبرت مجلة « امريكا الشمالية » سنة ١٨٢٩ الحكاية القصيرة ألهية ادبية ، ولكنها شجعتها لانها قد تهيء الكتاب الامريكيين لما اسمته « جهوداً انبل واعظم » .

وكانت هذه المهمة تخيل إلي حين بدأت بها ان البحث في تطور القصة القصيرة يصح ان يكون غاية اسعى اليها . غير اني حين مضيت في القراءة الجادة التي كانت تتضمن غايتي — اعني الترسم لتطور القصة القصيرة — وقعت على حقيقة لا تشجع على المضي . فقد بدأت بقراءة وشنطن ايرفنج وما كنت عدت الى حكاياته منذ عهد الطفولة ، وهي حكايات كتبها بأسلوب يعد اليوم قديماً — اسلوب تغلب عليه تصنيعات ذلك العصر ؛ فلم يكن ايرفنج يعلق اهمية على القيمة الروائية لموضوعه ، كما فعل من جاء بعده من الكتاب ، بل كان يميل الى التحدث — حديثاً غاية في الامتاع — عن شخصياته دون ان يدع تلك الشخصيات تعبر عن نفسها بالحوار والحركة . ولكنكم ان تغاضيتم عن كل ذلك وتسامحتم فيه ، فانه لن تخفى عليكم جدة قصصه اذا اعتبرتموها قصصاً ولم تلتفتوا الى طريقة القص . حقا ان تشيخوف لو كتب قصة : «رب فان ونكل» لكتبها بطريقة قصصية مغايرة ولكنها من حيث هي قصة لا يستكبر تشيخوف نفسه عن معالجتها . واغرب شيء فيها ان تجربة البطل الغريبة كانت ضئيلة الاثر في نفسه وفي اهل القرية التي عاد اليها بعد رقدة طويلة ، وكل ما عنى ايرفنج بتصويره هو غرابة الحادث ، وكيف اصبح موضوعاً يتحدث عنه اهل القرية ولا شيء غير ذلك . غير ان الصدق والفكاهة في هذا نفسه مما يعجبان تشيخوف كثيراً فيما اظن . وقصة « الرجل القوي » لايرفنج قصة حديثة ايضاً ولا تحجم كاترين منسفيلد نفسها عن معالجة مثلها . اما طريقة القص فشيء كان الناس لا ينفرون منه حينئذ ، ذلك لان وسائل الناس في الاستمتاع باوقات الفراغ في فجر القرن التاسع عشر كانت اقل منها اليوم فلم يكونوا يستاءون اذا سارت القصة بخطوات متثاقلة بل كانوا يتقبلون العرض البطيء والاستطراد المتعمد دون تذمر ، وكان الكتاب يسرفون في التجويد إسرافاً لا نعبأ به اليوم ويكتبون كتابة اصح مما قد يتطلبه الناس في ايامنا . اما اليوم فكل انسان يقرأ الجرائد اليومية ، والجمهور القارىء يتطلب ايجازاً وطريقة سريعة في التعبير . وقد اتبع كتاب القصص القصيرة ، وهم انفسهم من قراء الصحف او ممن يكتبون لها ، الاسلوب الذي درج ؛ ففقدا الانسجام الذي كان متطلباً ايام وشنطن ايرفنج ، والاسلوب الفخم عند هوثورن ، من الامور التي عفى عليها الزمن .

غير أني حين أمعنت في القراءة ازداد إيماني بأن القصة القصيرة واجهت تطوراً ضئيلاً ، فما كان يعتبر قصة جيدة في بدء القرن التاسع عشر لا يزال جيداً اليوم . وأمام هذه الحقيقة لم استطع ان أتقدم خطوة واحدة لتحقيق ذلك القصد الذي بدأت به ، فقد جاءت هذه الحقيقة مخيبة لآمالي ، ولكني عزيت نفسي في انه إن لم يكن هناك تطور على التحقيق فسيكون من السهل علي ان استكشف المكونات الاساسية التي تجتمع في طبيعة القصة القصيرة .

وقبل ان أمضي قدماً احب ان انبهكم الى ان الكاتب اذا تحدث عن فن يزاوله، كان متحيزاً مغرضاً ، إذ يتبادر الى ذهنه – بطبيعة الحال – ان طريقته هي خير الطرق . فهو يكتب كما يستطيع ويكتب كما يجب عليه لأنه هو هذا الانسان لا غيره ، فله مكوناته وله فطرته ، وهو يرى الأشياء من وجهة خاصة به ، ويعكس ما يقع على نفسه مثلما يتراءى في طبيعته . واذا شاء ان يتذوق فناً مخالفاً لفنه فلا بد ان يكون ذا قوة عقلية فذة فريدة . وهو على استعداد لأن يرى الحسنات مجتمعة في الشيء الذي يستطيع ان يؤديه هو نفسه ويرى خيراً قليلاً في خصائص وصفات لا تتوفر له ، وليس من الحق ان يلومه الناس على ذلك . إن التسامح صفة طيبة في الانسان ولو عمت لكان عالمنا أصلح للحياة مما هو عليه اليوم ، ولكني لست واثقاً من ان التسامح صفة طيبة في الكاتب . اذ ما الذي يقدمه هذا الكاتب للناس طيلة حياته ؟ انه يقدم نفسه. وما دام يفعل ذلك فمن الخير ان يكون واسع النظرة لان الحياة على اتساعها هي حيزه ومجاله ولكن ليس له ان يراها فحسب بعينيه ، بل عليه ان يستكنهها بأعصابه وقلبه واحشائه ، فمعرفته متحيزة حتماً ولكنها متميزة ، لأنه هو نفسه وليس هو بزيد او عمرو من الناس ، وله وجهة نظر محددة مطبوعة بطوابعها ، فان شعر ان هناك وجهة نظر قوية كتلك التي له ، فانه لن يعتنق وجهة نظره بحماسة ، ومن غير الممكن ان يعبر عنها بقوة . نعم إنه من المستحسن ان يرى الانسان للمسألة احياناً وجهين ولكن الكاتب في وقفته وجهاً لوجه امام الفن الذي يزاوله (ونظرته في الحياة جزء من فنه) لا يستطيع ان يرى الوجه الثاني إلا بالاستدلال والقياس. إنه يحس في دمه وفي عظامه أن ليس هناك إلا وجه واحد للمسألة وهو وجهة نظره وحدها . ومثل هذا الشذوذ عن المنطق الصحيح يبدو سيئاً لو كان الكتاب قلة في العدد. غير ان هناك آلافاً منا – معاشر الكتاب – يطأون الارض وطئاً ثقيلاً ، وما على كل واحد فينا الا ان ينقل وجهة نظره الخاصة به – نقلاً محدداً – ومن كل هذا النقل يستطيع القراء ان يختاروا ما يلائمهم ، حسب ميولهم وتجاربهم في الحياة.

لقد قلت هذا كله لامهد الطريق امام نفسي حين اجهر بأنني احب من القصص ذلك النوع الذي استطيع ان اكتبه ، وهو نوع استطاع كثير من الناس ان يجيدوا كتابته ، ولكن ليس فيهم من بلغ فيه شأو موباسان . ولذلك ، فخير ما اصنعه في هذا المقام لابين طبيعة هذا النوع من القصص ان اتحدث – جهد استطاعتي – عن احدى قصصه المشهورة ، وهي قصة « العقد » . فاول شيء تلحظونه فيهـــا ان المرء يستطيع ان يحكيها وقت العشاء اوفي غرفة التدخين باحد المراكب ويستلفت بها انتباه السامعين . حقاً انها تقوم في اساسها على حكاية ولكنها شيء اكبر من الحكاية بكثير ، واذا عرفتم هذا استطعتم ان تقرأوا القصة ثانية في سبيل الاطلاع على براعة القص فيها. فقد وضع الكاتب المنظر امامكم بايجاز ضمن الحدود التي تسمح بها الواسطة ، الا انه ايجاز مصحوب بوضوح . وقد حكى لكم كل شيء عن الاشخاص ونوع الحياة التي يحيونها ، وعما تسرب اليها من فساد ، في مسافة هذا الطول المناسب ليجعل الحوادث بسيطة واضحة واخبركم عنهم بكل ما يجب لكم ان تعرفوه . ومع ذلك فان قصته العقد من حيث طبيعتها ليست كاملة، لان مثل هذا النوع من القصص لا بد له من فاتحة ووسط وخاتمة ، فاذا بلغ القارىء الخاتمة ، فلا بد ان تكون القصة كلها قد حكيت دون ان تثور في نفسه رغبة او حاجة الى ان يسأل اي سؤال عنها لان كل ما يحيك في نفسه قد وجد جواباً، ولكن موباسان في هذه القصة ارضى نفسه بخاتمة ساخرة مؤثرة حتى ليجد القارىء العملي نفسه مدفوعاً ليسأل : ثم ماذا بعد ذلك ؟ الحق ان الزوجين التعيسين قد ضيعا شبابهما وبددا ما يجعل الحياة ممتعة في السنوات الموحشة التي أمضياها وهما يجمعان المال ليدفعا ثمن العقد المفقود ، ولكنهما حين يستكشفان أنه عقد مزيف تافه القيمة فقد يندفعان الى التعزي بالعقد الحقيقي الذي اشترياه في مكانه ، ليقنعا نفسيهما بأنهما أصبحا يملكان ثروة صغيرة ، وقد كاد هذا يصبح تعويضاً مرضياً لهما عن ذلك الجدب الروحي الذي جرته عليهما تضحياتهما. غير أن مما يثني على مهارة موباسان انه يأسر قارئه فلا يسمح له ان يظل ممتلكاً لاعصابه اثناء قراءة القصة ، ولا يتيح له ان يثير مثل هذا الاعتراض . وهذا يقربني من ميزة اخرى لهذا النوع من القصص وهي : ان المؤلف لا ينقل الحياة نقلاً حرفياً وانما يرتبها لكي يمتع ويثير ويدهش، فهو يتطلب منا ان نشكم في انفسنا ميلنا الى قلة التصديق ، وهذا هو الذي جعل هذا النوع من القصص يلقى شيئاً من الاعراض في السنوات الاخيرة اذ يعترض عليه الناس بقولهم ان الاشياء في الحياة الواقعية لا تحدث بمثل هذا النقاء ، انما الحياة الواقعية حادثة متعرجة الخيوط ، متراخية النهايات ، فترتيبها في انموذج

وضعي نوع من احالتها الى كذب . ولو ردّ موباسان على هذا لقال : ان مثل هذا الاعتراض لا علاقة له بالمشكلة ، لان الكاتب لا يرمي الى نسخ الحياة حرفياً وانما يرمي الى صبغها بصبغة روائية وهو يرضى ان يضحي بالمعقول في سبيل الغاية ؛ والقول الفصل في القضية ان نتساءل هل استطاع ان يحقق ما يريد . فان كان قد رسم الاحداث التي وصفها ، والاشخاص المتصلين بها حتى جعلكم على تمام الوعي بالجهد الذي بذله ، فقد اخفق ، لكن اخفاقه ليس حجة يعترض بها على طريقته .

إن القراء احياناً يتطلبون الالتزام الدقيق لحقائق الحياة كما يتخيلونها في انفسهم ، واحياناً اخرى لا يحفلون بذلك بل يتطلبون الغريب والشاذ والمدهش ، فاذا استطاعت القصة ان تأسرهم فانهم يرضون بأي شيء دون ذلك ، وهذا يدل على ان عنصر الاحتمال في القصص يتغير بتغير الزمن فهو الطعام الذي يمكن ان يزدرده القراء دون تردد .

ولم يضع احد قواعد لهذا النوع الذي اتحدث عنه من القصص بأدق واوجز مما قاله إدجار ألان بو ، واحب ان اقرأ لكم فقرة قصيرة من نقد لكتاب « حكايات حكيت مرتين » لهوثورن ، فانه يقول فيها كل ما يمكن ان يقال في هذا الامر : « الفنان الماهر يبني حكاية فان كان حكيماً فانه لا يوجه افكاره بحيث تلائم الاحداث بل انه يخترع الاحداث حين يصمم على ان ينتهي الى نتيجة فذة فريدة ، ثم يجمع النتائج التي تساعد على ابراز النتيجة الاخيرة التي يقدرها فاذا كانت اول عبارة لديه لا تتجه نحو ابراز تلك النتيجة فانه مخفق في خطوته الاولى . ولا بد ان تخلو قطعة من اية لفظة لا يتوفر فيها الاتجاه بطريقة مباشرة او غير مباشرة الى الهدف المقرر ، وبهذه الوسيلة وبمثل هذه العناية والمهارة يرسم على طول المدى صورة تترك في نفس من يتمثلها اتم نوع من الرضى وعلى هذا تكون فكرة الحكاية قد نقلت بلا ادنى عيب لانها مضت في طريقها مطمئنة دون معوقات او منغصات » .

وبعون من هذا البيان الموجز نستطيع ان نضع تعريفاً لما يعده «بو» قصة قصيرة جيدة : فهي قطعة من عمل الخيال تعالج حادثة واحدة مادية كانت او معنوية ، وتتميز بوحدة في النتيجة ولا بد ان تتمتع بالاصالة وبالقدرة على اذكاء الشعور والاثارة والتأثير ، ولا بد ان تتحرك في خط مستو من بدئها حتى نهايتها .

ولا ريب ان هناك قصصاً كثيرة ممتازة ، ولكنها تسقط اذا حكمنا عليها بهذه الشروط ، وكلنا يعرف ان الناقد لا يضع قوانين للفنان ولكنه يلحظ انتاجه العام ثم يستنتج منه هذه القواعد ، فاذا قام كاتب أصيل وحطم هذه القواعد فان الناقد، وان اجفل في البدء كالشيطان ، لا بد مضطر في النهاية الى ان يغير احكامه لتلائم هذه الاصالة الجديدة . وهنالك طرق اخرى غير طريقة «بو» في كتابة القصة الجيدة ، لان في القصة التي كان يكتبها قسطاً وافراً من الحيل ، ولما اخذ الطلب على القصة القصيرة يشتد بعد ظهور المجلة الشهرية وشيوعها لم يأل الكتاب جهداً في تعلم تلك الحيل . ومن اجل ان يجعل الصناعون ـ لا الفنانون ـ قصصهم اكثر رواجاً انتحلوا الحاخطة تقليدية ، فانحرفوا عن المعقول في رسمهم للحياة حتى ثار عليهم قراؤهم لانهم سئموا قصصاً تكتب على أنموذج ألفوه كثيراً ، فتطلبوا واقعية مطلقة لكن نقل الحياة حرفياً ليس من مهمة الفنان ، وقد يتراءى لنا اليوم ان مجانبة الواقع في فني الرسم والنحت من عمل فناني عصرنا، فمنذ البدء بالرسم والنحت ضحى الفنانون بفكرة النقل المطابق للواقع من اجل التأثير ، وهذا هو عينه ما تمّ في القصص تأملوا «بو» مثلا ، فهل تعتقدون انه كان يؤمن بأن الناس يتحدثون على الطريقة التي تتحدث بها شخصياته؟ هذا غير معقول اطلاقاً ولكنه ما وضع على ألسنتهم حواراً يبدو لنا مجاوزاً للواقع الا لانه رأى ان ذلك الحوار يلائم نوع القصة التي يقصها وانه يساعده على تحقيق الهدف الذي يرمي اليه . ولم يعتمد الفنانون ابداً نقل الواقع على حاله الا حين هوجموا بأنهم قد حادوا كثيراً عن الحياة وان عودتهم اليها ضرورية فاخذوا ينسخون الحياة فان كانوا حكماء نقلوها لا على انها غاية في نفسها ولكن على انها نظام مفيد .

ولقد درجت هذه النزعة الطبيعية (اي نقل الحياة على طبيعتها) في القرن التاسع عشر ثورة على رومانتيكية كانت قد أصبحت مملولة فحاول الكتاب واحداً بعد آخر ان يرسموا الحياة بصدق لا تردد فيه حتى ليقول فرانك نورس « لم أتزلف اليهم ابداً ولم استجدهم ولكني والله اخبرتهم الحقيقة أحبوها ام كرهوها ، فما يعنيني من ذلك ؟ لقد جهرت بالصدق وكنت اعرفه صدقاً يومئذ كما اعرفه الآن » (هذه كلمات جريئة ولكن من الصعب ان نقول ما هو الصدق فليس الصدق دائماً نقيضاً للكذب) .

إن كتاب هذه المدرسة كانوا ينظرون الى الحياة بعيون أقل تحيزاً من اهل الجيل الذي سبقهم ـ كانوا اقل عاطفية وأقل تزويقاً وتفاؤلاً ولكنهم كانوا أعنف واكثر صراحة وكان

الحوار لديهم اقرب الى الطبيعة واختاروا شخصياتهم من عالم كان قد اهمله القصصيون منذ ايام ديفو ولكنهم لم يأتوا بشيء جديد في فنية القصة ، اما فيما يتعلق بالمبادىء الأساسية في القصة القصيرة ، فقد ظلوا قانعين بالتزام النماذج القديمة وكانت الغايات التي يطمحون اليها كالتي كان «بو» يتعقبها وبذلك لزموا القواعد التي وضعها ، فأما حسناتهم فهي برهان على ما كان لتلك القواعد من قيمة ، واما سيئاتهم فقد أبرزت ما فيها من ضعف .

غير ان هناك قطراً لم تنتشر فيه مثل هذه القواعد إلا قليلاً ذلك هو روسيا، التي ظل الكتاب فيها مدة جيلين وهم يكتبون قصصاً من نوع آخر . ولما رسخ في اذهان القراء والكتاب من اهل الغرب ان نوع القصة التي كانت تحظى بالرضى كل هذه المدة، قد اصبح شيئاً ميكانيكياً مملا ، ظهر لهم ان في روسيا جماعة من الكتاب كانت قد جعلت القصة القصيرة شيئاً جديداً حيوياً ويُعدّ تشيخوف من بين هؤلاء الكتاب ابعدهم أثراً في العالم الغربي ، فقد أدّى ما تم على يديه الى اتجاه جديد في انشـــاء القصص القصيرة وتذوقها .

إن القراء الناقدين اليوم قد هجروا من غير اكتراث، القصة التي يعرفونها بأنها جيدة الصنعة واصبح الكتاب الذين ينشئونها ليمتعوا بها الجمهور الكبير ، محطّ اعتبار قليل ؛ وهؤلاء القراء ينظرون الى القصص التي كتبها موباسان في فرنسا وردیارد كبلنج في انجلترا بشيء من الازدراء ، وسأسمح لنفسي ان اقول لكم : إن كتابة قصص من النوع الذي كتبه هذان الكاتبان ليست من السهولة بمثل ما يتصورون . لأنها تحتاج الى ذكاء — لا أقول الى ذكاء خارق فذ ولكن الى ذكاء من نوع خاص . وتحتاج الى إحساس بالشكل وقدرة غير قليلة على الابتكار وإنه ليدهشني ان ارى النقاد يعيرون تنوع الابتكار عند هذين الكاتبين العظيمين التفاتاً ضئيلاً، ويبدو أنه لم يعد يلفتهم كيف ان هذين الكاتبين قد فكرا في مثل هـــذا العدد من الموضوعات وخلقا حشداً هائلاً من الشخصيات — والعدد الذي خلقه موباسان وأبرزه بوضوح امام القراء عدد ضخم جداً — ولكن القصة التي كان يكتبها لم تعد تحمل قوة الارضاء ، اما القصص التي كتبها تشيخوف فانها جاءت تروي عند القارىء الحديث ظمأ روحياً عجزت القصة القديمة عن إروائه .

غير اني حين اتأمل قصص تشيخوف لأتبين خصائصها واعبر عنها بايجاز ، أجد الحصر يتملكني ، ولا بد قبل كل شيء ان ننحي جانباً تلك الجدّة الآسرة في التركيب ، وتلك الغرابة في الحياة التي يصورها تشيخوف ، اذ ليس لهاتين الصفتين صلة بالمميزات الذاتية لتلك القصص . نعم انهما تضفيان عليها ملامح رومانتيكية ساعدت كثيراً على نجاحها عند القراء الغربيين ولكن الشأن فيها من هذه الناحية كالشأن في قصص برت هارت من كاليفورنيا فانها بما لها من جو رومانتيكي وشخصيات جذابة قد كسبت شيوعاً كبيراً عندما قدّمت الى عالم تغمره السآمة ان الناس كثيراً ما يستأسرون للبعد والغرابة ، ومنذ بدء الكون والقصاص يستغل هذه الوسيلة ليلفت بها الانتباه .

ولنعد الى تشيخوف : ان عدد الشخصيات التي خلقها قليل نسبياً لأنه كان يكرر النماذج التي يخلقها المرة تلو المرة ، وأرى انه كان قليل الاهتمام بالفرد فعجز لذلك عن ان يراه بوضوح ، وليست قصصه (وبقصصه هنا اعني تتابع أحداث متلازمة) فذة متميزة ؛ وهو قلما يعمد الى حكاية ممتعة في ذاتها كما انه لا يملك موهبة تمكنه من ان يقص قصة تعاد على مائـــدة الطعام — ونحن نعلم ان ذلك لم يكن من همه — . وبالرغم من كل ذلك فان اجود قصصه يبقى في الذاكرة مدة اطول من اية قصة ذات عقدة تهز المشاعر او ذات شخصيات واضحة السمات . لمَ كان ذلك ؟ لست أدري . وكل ما استطيع ان اقوله لكم هو ان اتحدث اليكم عن مدى ما تتركه قصصه من أثر في نفسي راجياً منكم ان تذكروا بعدي عن ان أدعي النقد ، وغاية ما استطيعه ان احكم عليها من وجهة نظر كاتب يكتب قصصاً تغايرهـــا وتختلف عنها . وانا اجد الأثر الذي تحدثه في نفسي قوياً ولكني لا إستطيع تحديده ؛ إنها تجعلني اشعر ان كل شيء باطل ، وكل شيء ينتهي الى خيبة وان الناس بله ضعاف ، وانهم تحت رحمة كل حادث مشؤوم ، وانهم كثيراً ما يكونون قساة متوحشين ، ولكن هذا لا يؤثر كثيراً ، فقد تكون هذه الصورة هي صورة الحياة وإن كان في اعماق نفسي شعور قوي يهتف بأن الحياة لا يمكن ان تكون كلها كذلك . وانا اظن انكم لن ترضوا عن تصوير تشيخوف اذا اردتم وضوح الشخصيات التي تقوم بالأحداث في قصصه : إن أشخاص قصصه من الواقع «بحق وحقيق» ، ولكنكم لا ترونهم وجهاً لوجه بل ترونهم وكأنهم يقفون من وراء حجاب من طبيعتهم الانسانية وقد انبهمت فيهم خصائصهم الفردية بعض الشيء . وبذلك يكون تعاطفكم

— البقية في صفحة ٦٩ —

كآبـة

الى التي سؤلت عن سر دموعها فاجابت
انني ابكي مع الطبيعة

*

إنني الآن كئيبهْ !
وباعماقي خيالاتٌ غريبه
لِمَ أمسيتُ كئيبه ؟
لم ارسلتُ دمـوعي
لم رحت الآن أبكي
مثلما تبكي الطبيعه
لم هذا الجفن لا يخفي دموعه ؟

*

لِمَ اشتاقُ الى هذي النجوم الشاحباتِ
أبها لونُ حياتي ؟
لِمَ أرتاحُ الى إطلالة الغيم السفيفِ
لظلام الليلِ للصمتِ المطيف
لاغاني المطرِ
لانسكابِ العبيرِ
لذبول الوردِ ... أو موتِ الفراش
للتلاشي ! !

*

أنا لا أدري لماذا
بتُّ أهوى كلَّ هذا
أنا لا أدري سوى أني كئيبهْ
سوى أن الآن في نفسي شتاءَ
وباعماقي بكاء
سوى أن البردَ الاسود يهمي في ضلوعي
سوى أني الآن أبـكي
مثلما تبكي الطبيعه ...

فنزويلا — **فؤاد الحسن**
من اسرة الجبل الملهم

الشعور بالذنب

بقلم الدكتور ابو مدين الشافعي

اننا نربي عدداً كبيراً من الاطفال ونربي معهم شعوراً بالذنب وذلك لاننا نوحي اليهم بفكرة الخطأ، ونكرر هذا الايحاء الى درجة ان الطفل يتصور دائماً أنه مذنب . وفي كثير من الاحيان يكون هذا الايحاء مؤيداً بالتهديد فيتكون في نفس الطفل شعور واضح بالخطر ، وان هذا الخطر راجع الى ذنب ارتكبه . ويصل الآباء الى هذا الموقف الباعث للشعور بالذنب في نفسية الطفل عن طريق الشك وتوهم الاعمال الطائشة لدى الطفل ، ويوجههم شكهم هذا الى معاملة المذنب قبل توفر الشروط التي تؤيد حقيقة الامر الذي يستدعي تأنيباً وتأديباً وعلى هذا الاساس يشعر الطفل دائماً انه مهدد من والديه اللذين يستمران في اعتباره مذنباً .

وعندما يسأل الآباء طفلهم عن الفعل الذي يتوهمونه فانهم يوحون للطفل بفكرة الفعل الذي لم يكن يعرفه من قبل . وهكذا تكون تربيتهم فاشلة بل مضرة ، لانها بدلاً من ان تكون مانعة للفساد فانها تكون موجهة له.

ويمكننا ان نذكر مثل اسرة ارتكبت اخطاء الايحاء بالشعور بالذنب ، وقد وصلت الحال ببعض افرادها الى تفكك واصابات نفسية بليغة . كان الأب يسيطر عليه الوهم والخوف تحت تأثير اضطرابات نفسية مكبوتة ، وكان سلوكه ضعيفاً في الخارج وعنيفاً في المنزل فكان دائماً يسقط حالته على اولاده وبناته ويكثر من توجيه الاسئلة اليهم باحثاً عن الاخطاء التي يمكن ان يكونوا قد ارتكبوها في الخفاء وكان يلح عليهم ليعترفوا بذنوبهم ، وكانت هذه العملية تتكرر مراراً في اليوم ، وتدخلت الام لتحمي اولادها من هذا الايحاء ، فانقلبت المشكلة النفسية لدى الاب الى مشكلة اجتماعية بين الزوجين ، وتربى الاطفال في هذا الجو من الخوف والشعور بالذنب . ولاحظنا انهم انقسموا الى قسمين : فبعضهم مال الى الفساد وكل ما كان الاب يخشاه ويوحي به في نفس الوقت ومال البعض الآخر الى استقامة شديدة وصلت الى درجة التعصب ، فابتعدوا عن كل ما يمس الناحية الجنسية التي كان الاب يحذرهم منها ويعتبر افعالها ذنباً يجب ان لا يرتكب . فكانت النتيجة وخيمة في التربية ، لان الفريق الاول انهمك باسراف في اللذات الجنسية وسلك الطرف الثاني مسلك الحرمان الضار والمعرض للعقد النفسية المختلفة .

وما يقال عن الناحية الجنسية يمكن ان يحدث في كل الميادين الاخرى اذا وجهنا ذهن الطفل اليها واسرفنا في تحذيره منها الى درجة اننا نولد في نفسه شعوراً بالذنب . وبهذه الطريقة نصنع بايدينا وفي منازلنا مذنبين في نواحي السرقة والكذب وغير ذلك من الذنوب الخطيرة مثل جريمة القتل وهتك العرض .

ويمكننا ان نشرح علمياً هذه الحقائق فنقول ان الايحاء بالشعور بالذنب يجعل ذهن الطفل متجهاً اليه باستمرار، ليحذره وليبتعد عنه ، وهذا الايحاء الذهني المستمر يحدث توتراً نفسياً يحاول الطفل في بعض الاحيان ان يتخلص منه فيرتكب الذنب ليشعر بالراحة وليتخلص من التوتر النفسي ، كما انه قد يقع في الذنب تحت رغبة الاستقلال وفرض الذات . فلا بد من ان تكون المراقبة خفيفة والملاحظة حكيمة حتى لا نوحي الى الاطفال بالذنب .

وفي اغلب الاوقات ننسى ان الاطفال يراقبوننا ويشاهدون اننا نقوم بالافعال التي نحذرهم منها ، ويجعلهم هذا يحارون في أمرنا ويتولد عندهم نوع من الشك في كل الارشادات التي نوجهها اليهم ، ويحدث نوع من الانفصال بيننا وبينهم ، وينطوي بعضهم على نفسه ويتعرض الى اضطرابات نفسية . وأغلب الآباء الذين يسرفون في الحياء امام اولادهم وهم يشرحون لهم اشياء تتعلق بالحياة شروحاً ناقصة او وهمية يحدثون عند اولادهم نوعاً من الحذر يتربى معهم ، ويتولد في أنفسهم شعور بالانفصال عن الآخرين وان هناك اشياء لا يجب معرفتها لان الناس كلهم لا يرضون بالتحدث عنها.

واغلب مشكلات الشعور بالذنب تقوم على الافعال الجنسية والانكار ، ولهذا السبب كان السلوك الجنسي مركز الامراض النفسية الى درجة ان اعتقد فرويد انها كل شيء في العقد النفسية . والحقيقة ان الصلة الوثيقة بين الموضوعات الجنسية والشعور بالذنب وما يدفعنا اليه من اخفاء هو سبب المشكلات النفسية .

يجب ان نراجع كل أفكارنا عن التربية ، ويجب ان نبعد عن اذهان اطفالنا كل ما هو زائد عن الحد في مراقبتنا لهم وفرض سلطاننا عليهم ، ويجب ان نعامل الطفل كطفل ولا نندفع وراء شعورنا كبالغين لنحاسبه على التفصيلات الدقيقة المتعلقة بمبادئنا

وثيقة خطيرة

بقلم رشاد دارغوث

°°°

لم أجد لنسبية « اينشتين » معنى في واقـــع الحياة ، الا حينما دخل علي الصديقان اللذان لا يفترقان ، منذ عرفت احدهما ، وعرفني هو الى الثـاني : موسى التبريزي وفرانس الانكليزي .

لقد كان موسى مبشراً من اتباع بوذا ، قضى معظم حياته في مدينة القدس ، ثم لجأ الى هذه البلاد بعد مهزلة الحرب الفلسطينية وكان رجلاً قصير القامة يلتمع في عينيه السوداوين بريق الذكاء وتنعقد بينهما خطوط المكر والدهاء . فيبدو لك، وقد ارتدى ثوب المبشرين البوذيين، الشبيه بالقباء البلدي الاسود كأنه واحد من هؤلاء الرهبان او القسس المنتشرين في اوساط اللاجئين. اما فرانس فهو مدير مؤسسة المانية ، وفدت حديثاً الى البلاد كي تستثمر ما فيها من معادن ثمينة ، كانت الدولة الالمانية القيصرية قد اكتشفتها قبل الحرب العالمية الاولى. وكان فرانس رجلاً فارع الطول ، ممتلىء العضلات ، عريض المنكبين ، يعلو كل ذلك عنده وجه كوجه الاطفال ، لا تفارقه الابتسامة الا حينما يعمد الى جمع الارقام، او التفرس ببعض الوجوه المعبرة!

تعرفت الى الاخ موسى اثناء احتفال اقامته الجالية البوذية.. في ذكرى خاصة بها ، دعت اليها اصدقاء الصوفية الشرقية . وكان ذلك في منزله الذي حوله في تلك المناسبة الى ما يشبه داخل المعبد البوذي .. مكان يغمره الظلام والجلال، وتنبعث من جوانبه موسيقى غامضة حالمة، توحي وتخدر، وبخور يحمل الى الانوف بعض اطياب الشرق، والى النفوس روح التواكل!



الاجتماعية . يسمع بعض الاطفال كلمات نعتبرهـا خارجة عن حدود الادب وليس الذنب ذنبه ان هي وصلت الى سمعه، فلا بد من ان يرددها الطفل لانه لا يعرف معناها ولانه لم يتكيف بعد مع البيئة الاجتماعية . فلا يجوز ان نعتبر لفظة فاحشة جريمة نستعمل كل قسوتنا لنعاقبه على استعمالها ، فكل ذلـك ينافي تفكيره ، وهو لا يفهم الداعي الحقيقي لقسوتنا واشتدادنا في محاسبته على هذا اللفظ دون غيره . يجب ان نحارب الضرر الحقيقي والاخطاء الفعلية في السلوك بدلاً من ان نتعلق بالقشور ونعقد نفسية الطفل لمحاربتنا الالفاظ ، ان الطفل الذي يحتاج الى عنايتنا لتوجيهه في مأكله ونومه غير مسؤول عن ترديد كلمة وصلت الى سمعه ، ولهذا يجب ان يكون موقف الآباء مجرداً عن الانفعال ويظهر في صورة نصح هادىء رزين بافهام الطفل ان هذه الكلمة غير جميلة ، واكاد ابيح للآباء عدم النهي عن اللفظ وبدء شرح معناه للطفل ، لان فهمه لمعنى كلمة فاحشة هو الذي سيعوقه في يوم من الايام عن استعمالها دون ان يكون هناك تهديد وانفعال.

ولا يجوز لاحد ان يفهم من هذا ان ليس هناك عند الطفل ذنب ، بل هناك اتجاهات كثيرة تفضح عند الطفل استعدادات عدائية ، يندفع بعض الاطفال تحت تأثير الغـيرة او الشعور بالضعف الى افعال تعويضية ، أي افعال غايتها اثبات الشخصية والايحاء الذاتي بالقدرة، وهذه العدوانية مصحوبة بشعور بالذنب اذ ان الطفل يحاول اخفاءها، ويكذب عندما يسأل عن سبب قيامه بها.

والخلاصة انه يجب ان نعامل الطفل كطفل له عالمه الخاص وان كل ما يمكن اعتباره ذنباً في تفكيرنا قد لا يكون الطفل مدركاً له كما ندركه نحن. وبذلك قد ننجح في تربية الطفل دون توليد شعور بالذنب في نفسه .

القاهرة — ابو مدين الشافعي

فلما انتهت المراسم الدينية ، تفرق المدعوون والمدعوات في ارجاء المنزل، وحديقته الصغيرة،ثم اديرت علينا المشروبات فحمل الاخ موسى الي بنفسه كأساً من الشمبانيا، وهو يقول:

— انني سعيد بلقياك... لطالما سمعت بك وقرأتك ، ألست انت عيسى السهلاوي ؟

فاجبت على الفور ، بتهذيب بوذي لا غبار عليه ، وانا اعتذر عن تناول اي مشروب او مأكول :

— انني اشد سعادة منك ايها المحترم ، فقد طالما تقت الى هذا اللقاء ، والتعرف الى ذاتك المقدسة..

وكان الاخ موسى ، كما يؤثر ان يلقب ، اشد الحضور سخرية من هذه الصفة التي الصقتها بذاته . . . فضحك وقال ، وهو ينظر الى الفتيات الجميلات الثلاث الواقفات في « شلتنا »:

— اية قداسة بقيت لنا، بعد ان دنس «العدو» اقدس اراضينا!!

ولما لم اجب على هذا الكلام، التفت الاخ موسى الى وراء ومد يده الصغيرة يستقدم بهـا . . عملاقاً كأنه خليفة لمارد الاساطير ، وهو يقول لنا :

— ساقدم اليكم صديقاً احبنا واحب ارضنا، بقدر ما يكره « عدونا » وعدو البشرية...

وما هي الا خطوتان حتى وصل « العم فرانس » من اقصى الغرفة المجاورة ، قافزاً فوق الدار ، الى غرفتنا التي احتللناها .

وكانت غرفة صغيرة ، يزيد شعورك بضيقها ذلك القرب الشديد بين سقفها وارضها ، ثم وفرة الاثاث والعاديات الصينية المنثورة عليه ، هنا وهناك ، حتى لتحسب نفسك في احدى جوانب متحف قديم .

واقبل « العم فرانس » علينا يحيينا بلغته الالمانية ، وهو يبسم لكل منا بمقدار ما يطريه الاخ موسى عند تقديمه اليه. فلما وصل الدور إلي قدمني على الصورة الآتية :

— صديقي منذ عشرين سنة.. في الكتاب، ومنذ ساعة في الحياة!

فابتسم لي العم فرانس ابتسامة عريضة وهو يقول :

— اليس الكتاب متصلاً بالحياة ؟

وقلت متخابثاً على طريقته :

— وهل للحياة قيمة اذا لم توح ما يستحق التسجيل في كتاب؟

بعد ذلك اليوم لم اتصل بالعم فرانس الا مرة واحدة. ولكنني اجتمعت الى الاخ موسى مرات متعددة ، انعقدت بيننا بعدها اواصر الصداقة، كما لم تبرح تنعقد بين انسان يتصل بنتاج الفكر اتصالا مستمراً ، وآخر لا يعيش الا للفكر وفي سبيل فكرة.

وقد سألت الاخ موسى منذ ايام :

— لمَ لم نعد نرى العم فرانس .. يا عزيزي ؟

فابتسم ابتسامته الحزينة المعتادة وقال :

— لقد سافر . الى ايطاليا ؟

— وهل انتقلت مؤسسته .. الى هناك ؟

— كلا ، وانما .. هرب خوفاً ..

فتضاحكت لما حسبته نكتة يطلقها الاخ موسى ، ولكنه لم يجارني فيها ، فتبخرت تلك الضحكة عن شفتي حتى انقلبت الى مشروع استغاثة . وقلت :

— انت تمزح ام تجد ؟ وما الذي يخيف مارداً مثله ؟

فتابع الاخ موسى التزام الرصانة ، وقال كأنه يهمس في اذن قريبة : — الم تسمع بانباء الزلازل في .. اليونان ؟

فقلت وانا لا ارى صلة بين هرب العم فرانس، وحدوث تلك الزلازل: — وما شأنه هو في ذلك، حتى يهرب من هذه البلاد !

حينئذ استوى الاخ موسى في جلسته ، وحاول ان يسد الفراغ الحاصل بين جسده الضئيل وبين ظهر المقعد الضخم، وقال:

— انه يعتقد بان هذه الموجة من الزلازل ستمتد ، وتطغى على شرق البحر المتوسط .. كما حدث ذلك منذ مئات السنين !

فضحكت هذه المرة من اعماق قلبي . ولكنني ، بعد لحظة شعرت ، وانا احدق في عيني الاخ موسى العميقتين ، برجع حزين لذلك المرح ، بدأ كالغمامة ترين على وجه الشمس ، ثم تشتد كثافة ، حتى تحجبها ، وتظلم الارض . وخيل الي في لحظة ان خشية العم فرانس ، في محلها وان لها ما يبررها . الم تهدم الزلازل هذه المدينة بالذات ، بل جميع مدننا الساحلية ، على دفعات في الزمن القديم ؟ الم يكن يحدث ذلك كلما بلغت هذه المدينة ذروة ازدهارها ، فكأن الطبيعة حسود حقود، لا ترتاح نفسه الا ان يهدم ما يبنيه الحيرون الطيبون !

واستأنف الاخ موسى حديثه ليقول :

— لقد كتب لي العم فرانس . . . من ايطاليا يحدثني عما شاهده في مدينة « بومبي» التي انطمرت تحت ركام المقذوفات البركانية... لقد زارها عدة مرات ، كي يثبت لنفسه ان ما خشيه من امر الزلازل هنا ، كان في محله ! الا ترى اننا نحن الشرقيين، كذلك، نعتقد الامر ثم نحاول ان نقيم عليه لانفسنا الادلة التي تدعم عقيدتنا فيه ؟

وقلت مستزيداً من المعلومات :

– وماذا كتب لك العم فرانس عن مدينة بومبيي ؟

فقال الاخ موسى مستدركاً :

– « اسألني ماذا وجد هناك مما له علاقة بهذه البلاد ! فهذا احق باهتمامك ! »

وقلت بدوري ، وقد بدا لي بصراحة ان الاخ موسى يشارك العم فرانس خشيته :

– « هل اعتزمت انت ايضاً على الرحيل ؟ »

فاشار الاخ موسى بذراعه القصيرة اشارة مبهمة ، ولكنها تعني « لا ادري » فلسفية ، كالتي نعيش نحن الشرقيين في كنفها مترقبين قضاء الله ، راضين بقدره .

وهنا اخرج الاخ موسى من جيب قبائه الواسع ، كتاباً راح يتلوه ويعرب لي اكثر فقراته ، فقال :

– هذه رسالة منه ، وصلت الي امس ، فاحببت ان اطلعك على فحواها . يقول فرانس : انه وجد في خرائب « بومبيي » مخطوطة .. استطاع ان يحل ما ورد فيها باللغة الرومانية ، لانه درس اللاتينية القديمة . وفيها ان مركباً كان قادماً الى هذه المدينة سنة ٥٦٠ . وكان محملاً اقمشة منسوجة، وراقصات لمعابد « افقا » وهياكل « بعلبك » ! وان تلك الاقمشة كانت برسم الصباغة ، في مصانع صيدا وصور المشهورة للارجوان ! فبعد ان افرغ القبطان ، وهو الذي يروي مشاهداته في تلك المخطوطة مشحون السفينة من الاقمشة والبضائع الاخرى ، اتجه صوب « بيروت » . ولم يكن معه من الرجال سوى خمسة وعشرين بحاراً فضلا عن خمسين راقصة كن من اجمل النساء . واذا بالريح تنقطع بتاتا ويصبح سطح البحر كأنه صفحة من الزيت ، لا تجعده نسمة ولا تتحرك فيه قطرة . فتوقف السفينة عن المسير ، مدة ثلاثة ايام بلياليها . ويضج البحارة من شدة الحر ، وما لقوه بجوار اولئك الراقصات الفاتنات المقدسات ، بعد الحرمان الطويل ! والمجاذيف لا تهدأ في ايديهم ، حتى تعود الى ضرب اليم بنظام رتيب وهمة لا تفتر . فقد كان هؤلاء البحارة من العبيد ولا حق لهم بالراحة ، في ظل العدالة الرومانية كما كان اولئك النسوة من الجواري ، ولا حصانة لمثلهن في ذلك المجتمع المترف ، اما « قداستهن » التي يسبغها عليهن الرقص في المعابد .. فقد كانت لحساب الكهنة ومنفعتهن الخاصة !

ثم يقول القبطان : حينئذ لجأت الى السوط كي اوقف به هؤلاء الفحول المحرومين ... واولئك الجواري المتبذلات ، عند حد ... فكانت ثورة العبيد ثورة حمراء ... ذهب ضحيتها خمسة رجال وثلاث فتيات ... القيت بهم في البحر ، بعد ان اخمدت انفاسهم باعقاب المجاذيف . وكان جل قصدي ان ارهب رفاقهم .. فكان لي ما اردت .

وفي اليوم الرابع . . . واجهتنا بيروت ، وهي تزهو بين الخليج والرأس كالعروس في حللها الارجوانية ، وعقودها الالماسية ، وحلاها اللؤلؤية ... ولكن الريح لم تتحرك ، والحمل ثقيل ... وما راعني عند زوال الشمس الا امواج البحر تتعالى تحت المركب ، كأنها دفعت بيد ساحر ، او اله قادر ... ثم اضطرب سطح السفينة على ضخامتها ... وتعالى صراخ الراقصات اللواتي كن يتجولن عاريات ، الا من حجاب رقيق . وعلى اكتافهن شعورهن المسترسلة تؤلف ظلالاً شقراء تكتنف الجمال الروماني البديع !

وما هي الا لحظات . . . مددت فيها نظري الى الشاطىء القريب .. حتى رأيت الارض تميد بما عليها كأنها غربال بين يدي بطل من ابطال الالمب ... فتتشقق الشواطىء ، وتنهار الابنيـة ، وتنسحق القصور ، وتتفكك القبب والمسلات والمنارات ... ويخيل الي ان صراخ الناس المذعورين ، وقد بدت جموعهم تتطاير كالعصافير فوق مرتفعات المدينـة ... وفي ساحاتها المكشوفة ، قد اتصل بصراخ الراقصات ، وضجيج البحارة في السفينة ... فالّفا لحناً من الذعر لن انساه مدى الحياة .

عند هذه الكلمات استوقفت صاحبي ، وقلت له :

– وهل وقع ذلك القبطان هذه الوثيقة ... الخطيرة ؟

فاجاب الاخ موسى قائلا :

– « لا ادري ... فالعم فرانس لا يذكر لي من ذلك شيئاً .. وهو ينهي رسالته بالقول ، نقلا عن تلك المخطوطة ، ان الحرائق اشتعلت في حرجة كانت تحيط ببيروت ... فالتهمتها ، وكانت من اجمل احراج البلاد . ! وانقلبت المدينة الجميلة ، بعد ذلك بايام قليلة ، الى كتلتين من ركام ورماد ! »

وخيل الي ان عيني الاخ موسى قد ترقرقتا بالدموع ! ولكنه لم يبك بالتأكيد مثلي ... فقد رأيته يستجمع قواه ، ويجمع اوراقه وثيابه ، ثم يهب واقفاً ليودعني ، وانا في بحران الانسان الذي يرى بلدته – ولو عبر التاريخ – خرابا يبابا ...

رشاد دارغوث

الخاطئـة

✶

الشمس من خلف الغمام تغضُّ بالطرف الكليل
تبدو خلال السحب شاحبة المحيا كالعليل
وتدير عين مسهد لمـا تدانت للرحيل
والكون أخلد ملجم الفكين للصمت الطويل
أغفى على حلم الضياء وهمسة الأمل الجميل
والليل لفَّ بصبوة المشتاق اعطاف النخيل
سكنت ديار الحي عن صخب وعن همس وقيل
حتى الرياح تماسكت عن نفثة الداء الوبيل

✲

ما راع أهل الحي الا ما تعالى من عويل
صوت أهاب مجلجلا كالرعد في قصف ثقيل
فتواثب الفتيان كالليث الغضنفر وسط غيل
يتسارعون لنصرة الداعي على الخطب المهول
وتلفتوا فاذا الحقيقة عُريت عن مستحيل
شاموا فتاة في فتون الفجر في عُري الأصيل
بنت تعرت غير نحر لُفَّ في شية الذليل
والناس في حكم الذئاب حيالها غير القليل

✲

ساروا بها للقتل شوطاً وهي في حكم القتيل
جسد تلاشى تحت وقع السوط كالشلو النحيل
يهتز من عادي الحمام وبارق السيف الصقيل
ويعيقه عن خوض احواض الردى حرص البخيل
جسد تلاشى غير اطماع تسرُّ بمستحيل

ويهيب صوت الكبرياء بها فتمشي عن ذهول
شخصت محملقة بوجه القوم تبحث عن نبيل
والموت الوان مروعة على الطرف الكحيل

✲

نادى عريف القوم اشياعـاً مشتتة الميول
أنحى بهجر القول واللوم الممض على الجهول
زعم الخطيئة مستجداً عارها في كل جيل
ما كان يمحو العار غير دم كمنهمر السيول
والرجم طب الجسم من درن الرذائل والخمول
فاذا ذئاب الناس تزحف للجريمة عن قبول
وتطلعوا متشوفين الى الضحية في ذحول
ما كان أغنى الناس عن كرهٍ الى عطف قليل

✲

وأتى المسيح يمدُّ في عطف الخليل يد الخليل
وافى العشيرة وهي بركان يميل بكل ميل
وأهـاب يهتف بالسلام بهم ويدعو للجميل
ومضى يردد من هو المعصوم عن خَطَل الجهول
هيهات يُعصم عن هوى أو شهوة غير الرسول
والطهر في الروح البتول وليس في الجسم البتول
ما كان شرع الله يدعو للتنابذ والذحول
والله جل جـلاله يعفو ويغفر عن جليل

دمشق — عدنان مردم بك

خليل السكاكيني : الرجل والاديب والمربي

بقلم عيسى الناعوري

الرجل

قبل وفاة السكاكيني بأشهر قلائل ، لقيته اللقاء الاخير في عمان ، اذا كان قد جاء يزور الاردن ، ويبل من شوقه الى الاهل والاخوان الذين أبعدته عنهم المأساة طويلاً في مصر . ولكنني حين دخلت عليه في فندق الكنتنتال ، لم أجد فيه « السكاكيني القوي المرح » الذي عرفته طويلاً في فلسطين ، ولا حتى « السكاكيني الكئيب الروح » الذي زرته في القاهرة عام ١٩٥٠ ، بعد المأساة بسنتين . لقد كان شخصاً آخر : كان يبدو عليه التعب الشديد ، وعهدي به — حتى في سن الخامسة والسبعين — في قوة الشباب ، وعنفوان العافية والنشاط وحيوية الروح . وكان يعاني الكثير من فقدان الذاكرة فما كان يذكر وجوه زائريه الا بمشقة كبيرة ، وهو الذي لم يكن ينسى اصدقاءه قط .

ولكم كان تأثري عميقاً حين رأيته يكثر من السؤال عما يراه الزائرون من دلائل العافية . لقد كان يفرح — كالاطفال تماماً — حين يؤكد له الزائرون انه يبدو لهم في تمام العافية . كان يريد ان يستوثق من ذلك ، ويلح في الاستيثاق .

لقد شعرت آنذاك بأن ابا سري قد انتهى ، وان الضحكة المخشخشة المبحوحة ، المرحة دائماً ، ستصمت قريباً ، وان الطفولة النفسية الحلوة التي كان يتحلى بها ابو سري دائماً ، وروحه اللطيفة ، ومجالسه الانيسة البشوشة ، لن تعتم ان تنطفىء الى الابد .

غير انني لم أقدر ان الايام كانت تخبىء لعودته بعد ذلك الى القاهرة ضربة قاتلة فوق احتماله . لم اكن اعلم ان الايام القريبة ستفجعه بابنه سري الذي كان في ميعة الشباب والعافية ، فتحطم شيخوخته ، وتطحن روحه طحناً قبل ان تغيب ايامه في ظلمة اللانهاية .

لقد انتهى السكاكيني بعد ذلك بأشهر قليلة ، بعد ان تلوع قلبه الكبير ، وتمزق بالمآسي المتلاحقة . وحين اقول هذا لست اقصد الاشارة الى مالقيه السكاكيني في شبابه من سجون ومرارات ومن انتظار لحبل المشنقة في عهد جمال السفاح ؛ فقد مضى ذلك والسكاكيني في فورة الشباب ، وعنف الروح النضالية المستعدة للتضحية ، فلم يبال به . ولكنني اقصد المآسي الثلاث التي ترادفت عليه في شيخوخته ، منذ ان انحدر عن الستين ، حتى استراح من الحياة — او استراحت من حربه الحياة — في نحو الثمانين من عمره .

في المرة الاولى فَقَدَ ابو سري رفيقة حياته « سلطانة » — أم سري — تلك التي قال فيها صديقه المرحوم معروف الرصافي :

أأم سري أنت « سلطانة » البها ... اطاعك منه ما عصا الناس أجمعا
ولم ير القصد في جمالك ناظري ... سوى ان كل الحسن فيه تجمعا

وكان ابو سري يعتز بهذين البيتين ، ويعلقها في صدر بيته بخط جميل في إطار جميل .

لقد بكى السكاكيني زوجته طويلاً ، فقد كان حبه لها قوياً مخلصاً الى النهاية . ولقد صور حزنه عليها في قصائد وفصول نثرية متعددة ، جمعها في كتاب دعاه (لذكراك) ووزعه مجاناً على اصدقائه ومعارفه . وظل أميناً لذكراها ، وفياً لحبها ؛ فما يمضي الى عمله اليومي الا بعد ان يعرج على (مقبرة صهيون) ليقف لحظة على قبرها حتى وقعت المأساة الثانية التي اقصته عنها الى مصر برغمه .

تلك المأساة الثانية كانت مأساة فلسطين « وقد خسر فيها خليل بيته الجميل في حي القطمون — أجمل احياء القدس الجديدة — وخسر مكتبته الغنية ، وابتعد فيها عن اهله وعن اصحابه ، وعن مواطن ذكرياته العزيزة ، وعن وطنه الذي كان يحبه اعمق الحب ، والذي كان يحمل لحمايته السلاح ، ويسهر الليالي مع المناضلين برغم الخمس والسبعين من سنيه . لقد كانت كارثة فوق ما يتصوره العقل .

وفي القاهرة اقام خليل في دار صغيرة استأجرها في شارع السلطان حسين في مصر الجديدة ، وفيها قضى سني غربته الكئيبة الخمس ، يجتر الذكريات ، ويتلهف على اخبار الاهل والوطن ، ويناضل اليأس والآلام . ولم يكن خليل غريباً في مصر ، فقد اقام فيها قبل ذلك سنتين ، يعمل في حقل التعليم – في عامي ١٩٢١ و١٩٢٢ – . ولكن ذلك كان في عهد الشباب القوي ، او الكهولة . وله في مصر اصدقاء كبار ، يحبهم ويحبونه .

ولكن الايام لم ترحمه هناك ، فقد اصيب قبل وفاته بعام واحد بمرض كاد يودي باحدى عينيه ؛ غير انه شفي منه ليترقب النهاية المفجعة بعد حلول المأساة الثالثة التي فَقَدَ فيها ابنه سريّاً ، وليت له من الابناء الذكور غيره ؛ وكان يحبه حباً شديداً ، ولذلك كان حزنه عليه اعظم من ان تحتمله شيخوخته المتعبة ، فمضى في اثره الى الابدية ، بعد اسابيع قليلة . وكانت وفاته أروع خاتمة للحب الابوي العميق .

كذلك كانت خاتمة خليل السكاكيني : الأديب الفلسطيني الكبير ؛ والانسان النبيل ، الكبير القلب ؛ والمربي الذي صرف قلمه وحياته كلها الى معالجة شؤون التربية : لامته في مجموعها بشكل عام ، ولأطفال امته ويافعيها في المدارس بشكل خاص .

اما حياة السكاكيني بشكل عام فتتلخص في انه ولد في القدس ، وتلقى العلم في مدارسها ، وتخرج من الكلية الانكليزية فيها . وكان يعلم في تلك الكلية المرحوم نخله زريق ، الذي ظل السكاكيني الى آخر حياته يحمل له اعمق التقدير واحسن الذكريات لوطنيته ومقدرته الادبية واللغوية . ثم اشتغل السكاكيني بالتدريس في العهد التركي ، وفي عهد الانتداب البريطاني بعد ذلك ؛ ثم عمل مفتشاً في ادارة المعارف ، واخيراً انشأ مع الاستاذ ابرهيم خوري ، والاستاذ لبيب غلمية ، كلية النهضة الثانوية في القدس ، وظل يديرها حتى وقعت المأساة ، فذهب الى مصر ، وهناك عين عضواً في المجمع العلمي حتى وفاته .

وكان دائماً كبيراً في نفسه وفي اخلاقه ، صلباً في مبادئه الوطنية وعقائده الاجتماعية . مما جرّ عليه الكثير من المصاعب فلم يكن يلين او يتغير عنها . وفي مطلع شبابه اشترك مع جماعة من اصدقائه وزملائه في القدس في تأليف جماعة صغيرة اطلقوا عليها اسم « حزب الصعاليك » ، وجعلوا لها فلسفة ومبادىء فيها الكثير من الانطلاقة والتحرر واللامبالاة . ولكن السكاكيني في انطلاقته المتمردة على الكثير من معتقدات الجماهير في الدين والتقاليد والعادات ، كان مثال النبل والتسامح والمحبة الانسانية وكان عظيما في بشاشته ، ورحابة صدره ، وحلاوة حديثه ، وفي ضحكته المخشخشة المبحوحة ، التي كانت تعدي جلساءه بالمرح وحيوية الروح .

وهنا يقتضي الانصاف ان اذكر شيئاً مما اعرفه بنفسي عن انسانية السكاكيني ، وعن روحه الرخيمة الصافية التي كانت تعطف على كل ضعيف ومحتاج من المخلوقات . فلقد كانت هذه الناحية الانسانية من اجمل مقومات شخصيته العظيمة ومن اقواها وابرزها . ولا يمر ذكر السكاكيني في خاطري الا مقترناً بالحادثة التالية التي وقعت لي معه في احدى زياراتي الاولى له . وكانت زياراتي كلها لأبي سرّي دروساً عظيمة القيمة في الأدب ، وفي القومية وفي الانسانية .

دخلت عليه مرة فوجدته واقفاً وراء طاولته في غرفة المكتبة ، ووجهه الى النافذة ، وبيده نسخة صغيرة أنيقة من الكتاب المقدس يقرأ فيها باهتمام . فصافحني ورحب بي ببشاشته المعهودة ، ودعاني الى الجلوس ، بينما استمر يقرأ في كتابه نحو دقيقتين . ثم جلس خلف طاولته وجعل يقول لي : « انظر يا استاذ ما أسمى تعاليم المسيح ، وما أجمل روحه . إنه المعلم الأكبر للانسانية الصحيحة ، ولكن المؤسف أننا قلّ أن نجد بين مئات الملايين ممن يدعون الايمان به وبتعاليمه ، مَن يسير بموجب هذه التعاليم الانسانية الروحية » .

ثم فتح الكتاب حيث كان يقرأ عند دخولي ، وقال : «اسمع ما يقوله المسيح : من سخرك ميلاً فامش معه ميلين ... من كان له ثوبان فليعط من ليس له ... من ضربك على خدك الأيمن فحول له الايسر ... » ثم طوى الكتاب وراح يقول بحماس وإيمان :

«هل تجد أجمل من هذه الروح الانسانية الرحيمة المتسامحة يا عيسى ؟ ترى لو لم يكن لي سوى هذا القميص الذي أرتديه ، وجاء ابني « سري » يطلبه مني ، أما كنتُ أتنازل عنه بملء السرور ، وأرضى لنفسي بالعري لكي أرى ابني يفرح بلبسه؟.. ثم لو طلب اليّ ابني أن اسير معه عشرة اميال ، حافي القدمين ، أما كنتُ أقطع معه هذه المسافة مسروراً ، ما دام ذلك يبعث السرور والرضى في نفس ولدي ؟! .. فاذا كنتُ أفعل هذا كله لابني راضياً مسروراً ، فلماذا لا يكون كل أخ لي في الانسانية هو ابني ، أقدم لراحته وسعادته ، بكل رضى ،

ما أقدمه لراحة ولدي وسعادته؟! لو كنا نفعل هذا حقاً لزالت الحاجة ، وانتفى الضعف من البشر ، وانعدمت الرغبة في الحروب ، وتلاشت كل أنواع النزاع والخصومات بين الناس»

ذلك كان أحد الدروس الانسانية التي تلقيتها على انسانية ابي سري في أول عهدي بمعرفته. وهناك درس آخر في التسامح والحلم وكبر القلب ، تعلمته منه في أول لقاء جرى بيني وبينه.

كان ذلك في أوائل عام ١٩٣٩ - فيا أذكر - وكنتُ ما أزال ناشئاً غريراً ، أرى في المقالات التي كانت تنشرها لي بعض المجلات الضعيفة ، مجداً ادبياً كبيراً . وكان بين هذه المقالات التي نشرتها لي مجلة طائفية اسمها (رقيب صهيون) كانت تصدر في القدس ، مقال انتقدتُ فيه كتاباً للسكاكيني عنوانه (سري) ، فيه مجموعة من رسائله التهذيبية التوجيهية التي كان يرسلها الى ابنه حينما كان يتلقى العلم في احدى جامعات اميركا . اما انتقاداتي على الكتاب فكانت تنصب على الناحية الدينية منه - وكنتُ ما أزال محشو الرأس بتأثير الدروس الدينية التي تلقيتها في المدرسة الاكليريكية في القدس ، حيث قضيتُ اربع سنوات - . وقد بدا لي أن السكاكيني في كتابه هذا إنما يقصد أن يزعزع الدين في نفوس الشباب ، ولذلك تحاملتُ عليه بما زينه لي غرور الشباب الناشىء الطائش ، وسوء التوجيه الأدبي والزاد الفكري الذين كنت أتزود بها من مهاترات الصحف والأقلام .

وحدث بعد ذلك أن رغب صديقي الاستاذ ابو رزق - عبدالرؤوف المصري - في اصطحابي لزيارة السكاكيني - ولم اكن قد عرفته حتى ذلك الحين - فذكرت لأبي رزق قصة المقال ، وما أخشاه من غضب السكاكيني لأجله . فوعدني بأن لا يذكره به. ولكن ما كاد يستقر بنا المجلس في دار السكاكيني حتى قال ابو رزق : اظنك عرفت اسم الناعوري قبل الآن يا ابا سري من مقاله الذي نشره في مجلة (رقيب صهيون) وانتقد فيه كتابك (سري) ؟ ! فامتقع لوني خجلا ، بينا انصرف ابو سري الي بوجهه البشوش وضحكته المرحة ، ومضى يسألني عن المقال - ولم يكن يعرف عنه شيئاً - . ثم نهض الى مكتبته وعاد يحمل كتاب (سري) وراح يسألني عن النقاط التي انتقدتها فيه . وأشهدُ انني ما عرفت الى الآن إنساناً ارحب منه صدراً ولا اطيب منه قلباً ، ولا اكثر منه تسامحاً ، ولا ابش منه وجهاً . ولقد ودعني حينما غادرت منزله الى آخر السلم ، ثم الى باب الحديقة ، وصافحني عند الباب وهو يقول: سأنتظر زيارتك كل يوم خميس في مثل هذه الساعة يا استاذ .

لقد كان ذلك اول درس في الأدب والأخلاق العالية تلقيته على صديقي العظيم ابي سري : الانسان ، والأديب ، والمربي. رحمة الله عليه ، وعلى قلبه الكبير ، واخلاقه المثالية العالية .

الأديب

الذي يدرس انتاج السكاكيني الفكري دراسة متقصية ، يرى انه كان ينصرف في تفكيره وادبه الى ناحيتين رئيسيتين : الناحية التربوية ، والناحية الاجتماعية . ويرى الى جانب هاتين النزعتين اهتماماً بمعالجة شؤون اللغة العربية وآدابها القديمة . وفي هذا الاتجاه الاخير ألّف السكاكيني كتبه التالية : « مطالعات في اللغة والادب - عليه قس - ورأي في تيسير قواعد العربية » وهذه التآليف تبرز منها الناحية العلمية اللغوية وحدها ، وهي اقل نواحي الادب شأناً - في اعتقادي - . وكتابه « مطالعات في اللغة والادب » كان في الاصل مجموعة مناقشات دارت بين المرحومين السكاكيني وشكيب ارسلان في شؤون اللغة والأدب . واما « عليه قس » فمجموعة قواعد قصيرة مختصرة في النحو ، ليقيس عليها الدارس بطريقة سهلة بسيطة . واما « رأي في تيسير قواعد العربية » فهو رأي السكاكيني الذي قدمه الى لجنة تيسير القواعد التي انشئت مرة في مصر ، وقد طبعه السكاكيني لامكان الافادة منه .

خليل السكاكيني

على ان هذه الابحاث والتآليف لا تبرز منها ناحية الاديب الذي يعمل لرسالة وفكرة. واول ما تبرز رسالة السكاكيني في الناحية التربوية التي كانت تسيطر على تفكيره وعلى نشاطه الثقافي. والتربية عنده تدور على محورين : محور المجتمع ، فهو يكتب ليوجهه الى الخير ؛ ومحور المدرسة والطالب ، فهو يعمل ليخلق

أجيالاً قوية في ثقافتها وفي اخلاقها . الا ان هذه الناحية الثانية، أي ناحية التربية المدرسية ، سنفرد لها حديثاً خاصاً ، بعد ان ننتهي من الحديث على رسالة السكاكيني الاجتماعية ، كأديب يكتب لمجتمعه كله .

لقد كان ادب السكاكيني دائماً ادباً واقعياً، يستمد مواضيعه من الحياة والمجتمع البشري ، ويعالج القضايا الانسانية : الاخلاقية والعقائدية والاجتماعية ؛ ويناضل لتحسين الحياة واوضاعها والرقي بحياة البشرية ؛ ولم يكن قط ادب ترف ذهني ، ينشد الفن المجرد .

ومن الانصاف ان نذكر ان السكاكيني لم يكن يدعو قط الى امر لم يكن يطبقه على نفسه ، ولم يناد بمذهب لم يعتنقه ، ولا دعا الى فضيلة او خلق او عمل لم يكن يمارسها بنفسه. فأنت تقرأ قوله في مقال له بعنوان (اسلوبي) : « إذا اردت ان تحفظ شبابك وجمالك ، وتجدد قوتك ونشاطك ، وتلتذبحياتك وتربأ بنفسك عن الانحطاط ، وبعقلك عن الجمود ، وبأهوائك عن التسفل ؛ فلا تخرج من بيتك في الصباح قبل ان تمرن جسدك ثم تستحم بالماء البارد صيفاً وشتاء ، ثم تتناول فطورك ثم تقرأ ثم تكتب حوادثك وخواطرك ، ثم تغني او تلعب على آلة طرب » .

تقرأ هذا فتتساءل : هل كان السكاكيني يعمل بما يقول ؟ فيجيبك هو نفسه قائلاً : ان كاتب هذه السطور حافظ على اسلوبه هذا يوم كان يشتغل عاملاً في احد معامل اميركا ، بل يوم كان رهين السجن ظلماً وعدواناً » . واستطيع انا ان اضيف الى هذا ان السكاكيني قد حافظ على هذا الاسلوب الى ما بعد السبعين من عمره ، ولعله استمر عليه الى النهاية ؛ فقد كان يبدأ نهاره – كل صباح – ببعض التمرينات الرياضية ، ثم بالاستحمام بالماء البارد صيفاً وشتاء ؛ وكان يعزف لنفسه على العود كما ذكر لي ذلك مرة ، ويدون مذكراته وخواطره التي تقع في عدة مجلدات ، ولا تزال محفوظة لدى كريمتيه : هالة ودمية .

وكان السكاكيني يدعو الى عدم الاكتراث ، والتمسك الواعي بالرأي والعقيدة ، وعدم بيع الضمير مهما يكن الثمن. وكان يبدأ بنفسه في كل ذلك . وهو يقول في هذا : « أنا لا القى دهري الا غير مكترث ، ولا انتسب الا الى نفسي ؛ فأنا خليل السكاكيني قَبَسٌ ، ولا اقيم لهذه الدنيا وزنا » .

وكان يدعو الى النبل وسمو الاخلاق ؛ والذين يعرفونه يعرفون فيه النبل وسمو الاخلاق والانسانية المخلصة ، الداعية الى المحبة والتعاون ، وبناء المجتمع الانساني على اساس العدل والمبادىء السامية . وإخلاص السكاكيني هذا في انسانيته هو الذي كان يدفعه الى ان يبث في تلاميذه واصدقائه ومعارفه وقرائه ، روح القوة الخلقية ، والقوة الادبية ، والقوة الجسمية. وكثيراً ما نجده يشير باعجاب شديد الى فيلسوف القوة الالماني فردريك نيتشه وشاعر القوة العربي ابي الطيب المتنبي وفي ذلك يقول مرة :

« استحكمَتْ فيّ لاول عهدي بالحياة فلسفة سوداء ، احسست معها ، وانا لا أزال فتى ، بدبيب الهرم في نفسي وجسمي .. الى ان طالعت فلسفة نيتشه ، فيلسوف القوة والحياة في هذا العصر ، مترجمة بقلم فرح انطون ، فانتفضت فزال القبر والكفن ، وعدت الى الحياة . فالحمد لله اولاً ، ولنيتشه وفرح انطون ثانياً . وهنا لست أنسى فضل شاعرنا الاكبر ، شاعر القوة ابي الطيب المتنبي ، نيتشه العرب ؛ فقد استمددت ولا أزال استمد من شعره القوة والحياة : لا يعتريني وهن او تعترضني شبهة يأس ، الا رجعت اليه فثاب الي نشاطي وتجددت آمالي » .

ولكن القوة التي كان يبشر بها السكاكيني ، ويدعو اليها مخلصاً وباستمرار ، كان يريدها قوة تحمي من الاعتداء، وتصون الكرامة ، لا قوة تعتدي على حريات الآخرين ؛ كان يريدها

عزة وأنفة وترفعاً عن الصغار والذل والاستخذاء ، لا بطشاً وظلماً وإيذاء . وكان لذلك يبدأ بنفسه ، فهو مثال القوة الروحية والقوة الجسمية التي لا تعترف بالشيخوخة او الضعف ، او الوهن . وكانت القوة الخلقية مذهبه وخلاصة مبادئه الادبية وفلسفته الاجتماعية والفكرية .

واما فكرة السكاكيني في واقع الحياة فكانت تتلخص في ان الحياة ميدان نضال في سبيل المعاش ، وفي سبيل الكمال ، وفي سبيل الحرية والكرامة والمبدأ والعقيدة ؛ ولا بد للمرء في هذا النضال من صدق العزيمة ، وقوة الارادة ، والفكر المستنير وشدة الحذر ، والحزم في مجابهة الواقع .

وقوانين البشر وتقاليدهم ليست قائمة على مبادىء صحيحة سليمة ، وانما للمظاهر فيها الشأن الاكبر . وفي هذا يقول السكاكيني في مقال له بعنوان (رسالة من المريخ) :

« لا يكون اللص على الارض لصاً الا إذا أمسك وهو متلبس بالجريمة ؛ كأنكم لا تعاقبون اللصوص لانهم سرقوا ، ولكن لانهم لا يعرفون كيف يخفون ما سرقوه » . ويقول ايضاً في مقال بعنوان (الزلزال) : « لا تكون النكبة نكبة الا اذا تصدّع منزل ذلك الغني وتشققت جدران بعض المساجد وقبابُ بعض الكنائس ؛ واما الفقراء فلو خربت بيوتهم بأسرها ولو ذهبوا ضحايا بأسرهم ، فالخطب هين » .

وهو كثير الانتقاد للعيوب الاجتماعية والاخلاقية ، وانتقاداته تجيء غالباً بأسلوب الفكاهة المرحة ، فيها شيء من اللف والدوران والمواربة ، فهو لا يقول للقارىء اعمل كذا ، وكذا ، مباشرة ولكنه يتحدث عن المزايا التي يقصدها حديث التحبيذ والتجميل ليحببها الى القارىء . ولا يقول للقارىء : تحاش الخلق الفلاني والرذيلة الفلانية ، ولكنه يحمل على ذلك الخلق وتلك الرذيلة ، ليفهم القارىء انه يقصد تحذيره منها . والأمثلة على هذا اكثر من ان تحصى في حياة السكاكيني وكتاباته ، وهي عنصر هام في اسلوبه الادبي والتربوي .

ولكن انتقادات السكاكيني كانت تخرج احياناً عن اسلوب المواربة ، فتجيء صريحة مباشرة ، تحمل المرارة والألم والنقمة . ومن هذا القبيل مقاله بعنوان (الزلزال) الذي جاء فيه ما يلي:

« اكثر الذين نُكبوا بهذه الزلزلة — عام ١٩٢٧ — هم الطبقة الفقيرة ... واذا فتشت وجدتَ أنهم تحملوا مصيبتهم صابرين ساكتين ؛ واذا سمعت استغاثة فمن جانب الأغنياء ، لا من جانبهم . تحل المصائب على الفقير ، فيبادر الغني لا الى الاغاثة ، ولكن الى الاستغاثة ، لا توجعاً للفقير ولا رحمة به ، ولكن دفعاً له عن ان يلجأ اليه ؛ وهل يُغيث من يستغيث ؟!.. وإني لأخشى ان يكون الاغنياء اول من يستغلون هذه النكبة . إني لأخشى اذا قيل : «اين المنكوبون ؟ » ان يكون الاغنياء اول من يحملون سطولهم ، فيدفعون الناس بالمناكب ! » ثم يتابع كلامه وانتقاده المرّ قائلاً :

« ماذا فعلت الزلزلة ؟ اهدمت بيوتاً للفقراء ؟ ولكن ألا يهدم سادتنا الاغنياء كل يوم بيوت الناس ، ليقيموا على انقاضها قصورهم الجميلة الانيقة؟ امزّقت اجسام الفقراء، وجبلت بدمائهم التراب ؟ ولكن الا يمزق الاغنياء اجسام الناس ويمتصون دماءهم كل يوم ، لينتفخوا هم شبعاً وريّاً ؟ ! اذا كانت هذه الزلزلة على الفقراء زلزلة ثوان ، فأنتم ايها الاغنياء عليهم زلزلة مستمرة ... ألا ، ليس بكاؤكم عليهم الا ضحكاً منهم ، وليس توجعكم لهم الا شماتة بهم ، وليست استغاثتكم لهم الا دفعاً لهم عن ان يستغيثوا بكم ... »

هذا قليل جداً من ادب السكاكيني الذي ادّى رسالته الى المجتمع : رسالة الرحمة والعدالة والمحبة والاخوّة الانسانية . وقد بقي علينا ان نتحدث عن اسلوبه الادبي في كتاباته .

يعتمد اسلوب السكاكيني اولاً وقبل كل شيء على روح المرح والدعابة — الا في النادر جداً — . والمرح والدعابة ميزتا السكاكيني في حياته وفي كتاباته . ويعتمد اسلوبه ثانياً على كثرة الاقتباس من الشعر والنثر ، ومن حكايات العرب ونوادرهم ، مما يدل على كثرة محفوظه ، ووفرة مطالعاته في كتب الادب العربي خاصة . ويعتمد ثالثاً على كثرة التقاسيم والشطحات في الموضوع الواحد ، فأنت تسمع منه المحاضرة ، او تقرأ له المقال ، فاذا الموضوع يتشعب ويتنوع حتى يشمل عدة مواضيع ، ويتوزع الى عدة اقسام تكاد لا تترابط لولا روح المرح التي تجمع بين اجزائها ، وهي ميزة السكاكيني الخاصة .

والسكاكيني في كل هذا متأثر جداً بالجاحظ ، ولكنه اوفر منه حظاً من خفة الروح ، وحلاوة النكتة ، وطلاوة العبارة .

قد تجده يتحدث على (الانسان) — مثلاً — فاذا تاريخ الحيوانات، وتسلسلها، وتنوعها، ومشابه حياتها بحياة الانسان، واختلافاتها عنه ، وتاريخ المنازعات البشرية ، ونوادر الشعراء والادباء والملوك في مختلف امور الحياة والانسان والحيوان ،

جميعها تُعرض عليك بشكل عجيب ، تكاد تدوخ منه قبل ان تصل الى الموضوع الاساسي ، لولا ما في الحديث من طرافة وفكاهة

وقد تسمعه يتحدث على شاعر شعبي مثل (ابو ذياب) — من قرية الطيبة بقرب رام الله — فاذا طرائق الشعر والنثر والفن والذوق ، وصفات المدرسة والمعلمين ، والابتكار والتقليد في الادب ، والمطبوع والمصنوع من الشعراء ، كلها تعرَض عليك في شريط واحد كله دعابة ومرح ، وإذا أنت تنزل مع التاريخ حتى تصل الى اصحاب المعلقات ، ثم تبدأ بالصعود الى الجاحظ ، ثم الى الامير بشير الشهابي ، ثم تصل بعد رحلة طويلة جداً الى (ابو ذياب) ، واخيراً يتاح لك ان تسمع جزءاً صغيراً من مقطوعة واحدة من شعره الشعبي الاجتماعي ، واذا أنت تجد حظ الشاعر — موضوع الحديث — لا يزيد على جزء ضئيل جداً من المحاضرة .

اما الاقتباس في كتابات السكاكيني فكثير جداً ، فما يكاد يخلو مقال له — مهما يكن قصيراً — من عدد من الاقتباسات او الاقوال الادبية المأثورة ، او الحكايات والنوادر العربية .

والسكاكيني مشبع الذهن بالادب العربي القديم ، ولعله كان يحفظ جزءاً كبيراً من المعلقات ايضاً ، وهو يذكرها كثيراً جداً ، حتى إنه ليبدأ اول مرثية قالها في زوجته ، بجزء من مطلع معلقة امرىء القيس ، فيقول :

« قفا نبك من ذكرى » اذابت حشاشتي ولا تبخلا بالدمع فالدمع حاجتي

ويتحدث في كتابه (سري) عن (قانون الايمان) الذي يتلوه المسيحيون في صلواتهم توكيداً لعقائد دينهم ، فيقول عن شعوره الخاص تجاه هذا القانون الطويل ، انه (يستسهل ان يحفظ معلقة امرىء القيس — بخشونتها وغرابة تعابيرها — على ان يحفظ قانون الايمان) .

ولا يتسع المجال لأجيء بنماذج اخرى لأسلوب السكاكيني في دعابته واقتباساته وشطحاته وتقسيماته ، ولذلك اكتفي بأن اشير الى مؤلفاته التالية : (ما تيسر — جزآن) و (سري — فلسطين بعد الانتداب — مطالعات في اللغة والادب — لذكراكِ) والى العديد من مقالاته التي لم يقدر لها الطبع في كتاب الى الآن ، وعلى الأخص الى مذكراته المخطوطة ، التي نرجو أن يقدر لها الظهور في الاسواق في وقت غير بعيد .

المربي

كانت المزية الكبرى للسكاكيني : انه معلم ومرب من طراز فذ سواء في حياته الخاصة واتجاهه العملي ، ام في حياته الادبية ونشاطه الفكري . والتربية عنده تتخذ طريقين : التربية المدرسية والتربية الاجتماعية . فالاولى تعنى بتنشئة الطلاب على الثقة بالنفس والحياة الاستقلالية ، والاخلاق القوية الى جانب مايتلقونه من معارف . والثانية تعنى بتوجيه الجماهير عن طريق المحاضرة والكتابة ، الى السبل المثلى التي تسمو بها إنسانيتهم ، وتستقيم بها كرامتهم وحريتهم .

والسكاكيني في اتجاهه التربوي المدرسي ، في طليعة المشتغلين في هذا الاتجاه عن وعي وفهم لاسسه الصحيحة ووسائله القويمة بين العرب ، وهو فيه استاذ لكثير من المربين ، ولعدد من المؤلفين للمدارس . ولعل في سلسلة كتب (الجديد في القراءة العربية) المشهورة باسم سلسلة (راس — روس) والتي اعيد طبعها عشرات المرات ، وتخرج عليها اجيال عديدة من ابناء فلسطين والاقطار العربية ، الدليل الكافي ، لا سيما وهي ما تزال اليوم احسن سلسلة من كتب الاطفال المبتدئين في المدارس العربية .

وليست هذه السلسلة سوى تطبيق عملي للفكرة التربوية التي كان يدين بها السكاكيني ؛ وهو تطبيق جد ناجح ومثمر . اما الفكرة نفسها — او النظرية التربوية — فنجد لها شرحاً في كتاب (الدليل) بجزءيه ، اولاً . وقد وضعه السكاكيني ليكون مرشداً لمعلمي العربية عامة ، وهو في الواقع مدرسة ممتازة لهؤلاء المعلمين الذين يريدون النجاح في تأدية رسالتهم في التعليم والتربية . وكم نتمنى لو اهتمت إحدى الجهات المعنية بشؤون التربية في البلاد العربية باعادة طبع هذين الجزءين وتعميم نشرهما في اوساط المعلمين وفي جميع المدارس ، لما لهما من عظيم الفائدة في نجاح تدريس العربية .

والى جانب (الدليل) شرح السكاكيني أساليبه التربوية في مقالات متعددة ، نجد غير قليل منها في كتابه (سري) وفي كتابه الآخر (ما تيسر) ، وكلها تهدف الى التربية الاستقلالية ودعم الثقة في نفس الطالب ، وتعويده الصراحة ، والجرأة ، والاخلاص ، والوفاء ، والتعاون ، وغيرها من الفضائل التي تقوم عليها الأمم الحية القوية ، لاخراج اجيال قوية في بنائها الاخلاقي ، الى جانب قوتها في بنائها العلمي .

ففي (سريّ) جمع السكاكيني عدداً كبيراً من الرسائل التي كان يوجهها الى ابنه (سري) حينما كان يطلب العلم في اميركا . وفي هذه الرسائل كان يحرص على ان يربي ابنه تربية استقلالية صحيحة ، وعلى ان ينمي في نفسه شعور المسؤولية ، وشعور الانسانية الواعية لأهدافها ومبادئها واغراضها . ولما كان ما يصلح لتربية ابنه هذه التربية الحرة التي تؤهله لان يصبح حجراً صالحاً في بناء اجتماعي صالح ، يصلح ايضاً لتربية كل شاب آخر من الاجيال العربية الطالعة ، لذلك جمع السكاكيني تلك الرسائل في كتاب ليقرأه الكثيرون ويستفيدوا منه .

قد يكون في هذه الرسائل شيء من التطرف في العقيدة لا يرضى عنه المتدينون واصحاب المذاهب ؛ واعترف هنا بأنني قد اخطأت انا نفسي مرة إذ هاجمت الكتاب من الناحية الدينية هجوماً طائشاً في عام ١٩٣٨ او قبله بقليل ؛ ولكن ليس من شك في ان السكاكيني « انساناً » و « داعية انسانياً » لا متمذهباً ولا داعية الى حزبية دينية . وكان يدرك كل الادراك ان التمذهب والتحزب الديني هما اكبر عوامل الهدم في المجتمع الواحد ، او في الامة الواحدة ، وما يمكن ان يقوم كيان قوي حر لامة يمزق قلوبها التحزب المذهبي ، وتفسد حياتها التفسيرات الدينية المغرقة في الروحانية .

ونحن لذلك نستطيع ان نعتبر كتابه (سري) كتاباً للتربية المدرسية ، وللتربية الجماهيرية في وقت واحد ؛ فالقصد منه تربية جيل من الناس قوي في اخلاقه ، واع لمسؤولياته الوطنية والانسانية .

اما الوسائل التي كان يتخذها السكاكيني للوصول الى اهدافه التربوية والتوجيهية ، فمتنوعة ؛ ولكنه كثيراً ما كان يلجأ الى الاسلوب غير المباشر ؛ فاذا اراد ان يحث على فضيلة او خلق او عمل نافع ، لجأ الى الحديث عنها بلهجة المعجب بها او بلهجة الذي يقرر وجودها في نفس المخاطب او المتحدث عنه .

ولنأخذ مثلاً الكلمة التي القاها في الحفلة السنوية الثالثة لخريجي كلية النهضة في القدس ، وفيها يوجه آخر نصائحه الى فوج الخريجين ، فيقول :

« طلابنا اباة ضيم ؛ فاذا سيموا خطة خسف ، قالوا والاوداج منتفخة والعيون محمرة : لا . . . طلابنا كبار النفوس ؛ فلا يطمع احد ان يتخذهم ابواقاً جوفاء او آلات صماء . . طلابنا لا يخافون شيئاً ولو سقطت السماء على الارض . طلابنا اصحاب همم عالية والدنيا في نظرهم أضيق من كفة حابل ، وأقل من حبة خردل . طلابنا لا يتملقون احداً ، بل هم كالفيلة التي إذا قدم لها علفها فلا تعتلفه حتى تمسح وجوهها ويتملق لها . . هؤلاء هم طلابنا ؛ افسحوا لهم الطريق ؛ بوّئوهم المكان الذي يليق بهم تحت الشمس ولا تلجئوهم الى القتال ، فانهم ما غولبوا الا غلبوا » .

هذه طريقة . . وكانت الطريقة الثانية ان يلجأ الى النصيحة المباشرة ، مغموسة بروح الفكاهة اللطيفة — روح السكاكيني وطابعه الخاص — ، فيقول للخريجين في مرة ثانية :

« أيها الخريجون الكرام ! بمَ أوصيكم ؟

ستجدون من الناس من هم اشبه بالملائكة ، ومنهم من هم اشبه بالابالسة ؛ اما الملائكة فكونوا معهم ملائكة ، واما الابالسة فالويل لهم منكم .

ستجدون من الناس من يسرق ليعيش ، ومنهم من يعمل ليعيش ؛ فاذا لقيتم النوع الاول فلا تسلموا على احد منهم قبل ان تعدوا اصابعكم ؛ وإذا لقيتم النوع الثاني فاحنوا رؤوسكم الى الارض اجلالاً لهم .

احترموا كل من يستحق الاحترام ، ولكن لا تعبدوا أحداً : الحياء فضيلة ؛ ولكن اذا حاول الاشرار ان يستغلوا حياءكم فلا تكونوا ذوي حياء »

اما النصيحة الأخيرة فيجعلها بهذا الشكل :

« لا تنسوا تصريف الفعل الناقص مع الضمائر ! » ثم يضيف قائلًا : « هذه كلماتي العشر ، فاذا افادتكم فاذكروني بالخير ، وترحموا علي ؛ واذا لم تستفيدوا منها فاذا لقيتموني في الطريق فلا تسلموا علي ، واذا مت فلا تمشوا في جنازتي ! »

اما طريقة السكاكيني في التعليم ، التي مارسها بنفسه معلماً ، وجاهد في تطبيقها في اثناء اشتغاله بالتفتيش في ادارة معارف فلسطين ، ثم طبقها في كلية النهضة التي كان يديرها في القدس ، فقد شرحها في كتابه (سري) واخيراً في (ما تيسر) ، وهذا بعض كلامه فيها ، من كتابه (ما تيسر) في الحديث على كلية النهضة في القدس :

« مدرستنا حرة : لست اعني انها تهيىء طلابها لان يكونوا احراراً في المستقبل ، ولكنها تريد ان يكونوا احراراً منذ اليوم : واذا لم يكونوا احراراً منذ اليوم ، فلن يكونوا أحراراً الى الأبد .

مدرستنا لا تتقيد بالحضور والغياب ؛ فمن شاء حضر ومن شاء غاب .. نحن لا نكذب طالباً ولا نشعره اننا لا نثق به .

مدرستنا لا تتقيد برأي احد ، ولا تقبل الرأي الا بعد ان تضعه تحت البحث ؛ فهي لا ترى في العلم تنزيلًا ، ولا تراعي في الحق خليلًا .

إن التعليم عندنا ليس ادخاراً ولا استظهاراً ، بل هو حياة واستعمال : نعلّم طلابنا التاريخ لا ليعرفوا التاريخ ، ولكن ليكونوا مؤرخين — نعلمهم الادب لا ليعرفوا اصول الادب ، ولكن ليكونوا ادباء ..

مدرستنا اقرب ان تكون مكان تَرَبٍّ وتعلم ، لا مكان تربية وتعليم : أي ان الطلاب يربون انفسهم بأنفسهم ، ويعلمون أنفسهم بانفسهم ، ويحلون مشاكلهم بأنفسهم . واذا استعصى مشكل ، لجأنا الى العقل لا السطوة ؛ فاذا كان الحق في جانبنا اعتذروا ، واذا كان الحق في جانبهم اعتذرنا » .

هكذا كان السكاكيني معلماً ومربياً في حياته .

لم يكن يفصل التعليم عن التربية ، لانهما متلازمان كل التلازم ومن الخطر فصلها . وها هو السكاكيني يشرح لنا كيفية تطبيقه دروس التعليم والتربية معاً فيقول :

« حين درسنا شعراء الدولة الاموية ، وجدنا ان معاوية احتاج الى شاعر يهجو الانصار الذين آووا النبي ، فأبى الشعراء المسلمون ذلك عليه ، ودلوه على شاعر نصراني هو الأخطل ؛ فهجا الأنصار .

اما نحن فلم نرضَ عن الشعراء المسلمين ، فقد كان يجب ان يترفعوا عن الهجاء ، لا لان المطلوب هجاؤهم هم الانصار ، ولكن لسببين آخرين : الاول لئلا يكونوا آلات في ايدي الناس ؛ والثاني لان الهجاء في حد نفسه مكروه ، ولا سيما اذا كان موجهاً الى الاشخاص لا المبادىء .

ولم نرضَ عن الاخطل ، لانه قبل ان يبيع ضميره ولسانه فهو مثل كثيرين من اصحاب الصحف والاقلام والالسنة في هذا العصر ، الذين يشتغلون بنشر دعوة دون اخرى مأجورين . فلو كان الاخطل في هذا العصر ، لوُضع لسانه في سوق المزاد . لذلك قررنا ان نقطع الأخطل من الكنيسة ، ونجرده من شرف الشاعرية ، ونادينا باعلى اصواتنا : ليسقط الأخطل ! »

هذا الدرس الصغير يرينا كيف تجتمع التربية الاخلاقية الصحيحة ، مع المعرفة النافعة . ولسنا نظن اننا في حاجة الى مزيد من الامثلة في هذا الموضوع . على ان من الواجب ان نذكر ان السكاكيني كان مخلصاً في محبته للتعليم ، وكان يرى رسالته الانسانية والوطنية هناك في هذا الحقل . لقد اخلص في ذلك في مطلع شبابه وعنفوانه ، واخلص في ذلك حتى في شيخوخته ، الى الخامسة والسبعين من عمره ؛ تلك الشيخوخة التي لم يكن يعترف بها ابداً ، لانه كان دائماً في حيوية الشباب ونشاطه وحماسه وعافيته .

وفي محبة التعليم يقول السكاكيني : « ليس شيء بين اعمال الناس وصناعاتهم اجمل من صناعة التعليم . ولو عدت مرة ثانية الى الحياة — لا سمح الله ! — لما اخترت الا ان اكون معلماً ؛ وقد اختار ان اكون معلماً للأحداث ، فان معاشرة الأحداث لذيذة جميلة » .

كذلك كان السكاكيني معلماً ومربياً في المدرسة للاجيال الجديدة ، وكذلك كان معلماً ومربياً بقلمه وبلسانه في المجتمع لقرائه ومعارفه ، لانه كان يهدف الى خلق اجيال تبني المجتمع السعيد ، لتحيا الحياة السعيدة اللائقة بانسانيتها . لقد اخلص في ذلك وادى رسالته على خير وجه .

رحم الله ابا سري ! فلقد استفاد من ادبه واخلاقه كل من عرفه ، وسيظل في قلوب تلاميذه وعارفيه العديدين ذكرى غالية ، ومدرسة من الاخلاق والادب !

عمان ـ الاردن

عيسى الناعوري

النعش الاخضر

الى امي الضائعة من وجودي

✳

لانور الجندي

السلمية ـ سوريا

✳

من بقاياك أدمعي وجراحي وظلامٌ يموج بالأشباحِ
اسأل الفجر ، أين أنت ، فينهار سؤالي ، ومأملي ، وطماحي
واغنّيك ذكرياتي وكانت في سماع الوجود ُحلم الوشاح
ينصت الليل ، حين أهتف يا ليل ، ويهتزّ قلبه لصداحي
وافترار الربيع ، في ثغرك المحبوب ، يزهو بألف ألف مراح
أأغنّيك ، والتراب كثيفٌ وحدود الزمان قصّت جناحي

✲

أمّ ، أين اللقاء ، لا ، لن يؤوبا ، أنت مزّقته ، فعاد لهيبا
لو تزول القيود من عالم الأرض ، لأفنيت في اللقاء الدروبا
كم سفحت الدموع ، وهي غوالٍ حول قبرٍ يسيل طيباً فطيبا
ولثمت اليد الحبيبة محموماً ، وآليت في الهوى ان أذوبا
وتهاويت ، أغسل الوجه بالأنفاس حرّى ، وبالعويل كئيبا
أمّ ، لا تسألي فؤاديَ صبراً بعد أن شيّع المحبّ الحبيبا

✲

أنا شيّعت بالذهول أناشيدي ، ورويّت قبرها بدموعي
وتمنيت ان أكون بكاء الليل ، في أذْن فجريَ المفجوع
طال ليلي ، فما أحسُّ له عمراً ، كأنّ الظلام نار ضلوعي
هو في قلبيَ المجرّح ، آلامٌ ثقالٌ ، مغمورة بنجيعي
وسؤالٌ على الشفاه غريبٌ ، أتعودين زهرةً في الربيع
أتعودين ؟ صرخة في فم الأقدار ، محشوّة بشكٍ مريع

أنا قرب السرير ، أجهش محزوناً ، فردّي إليّ بعض رجائي
وانظري ، هل ترين غير خيالٍ ، عاصب الرأس ، مثقلاً بالشقاء
حدّقي ، حدقي ، أنا ابنك يا أماه ، ابكي ، فهل سمعت بكائي
ما لعينيك لا تجيبان قلباً ، كان بالأمس ُحلمك اللانهائي ؟
ما لهذا الوجه الحبيب أطال النوم ، والفجر مترع بالفناء ؟
حسب عينيك ، أن يمرّ بك الفجر المندّى ، وأنت في إغفاء

✲

أيها الموت ، من تكون؟ أأنت البؤسُ يندى بذكريات الفقيرِ
وعويل الرياح يملأ سمع الليل ، فالكون حفنة من سعيرِ
ضاق بالمعصيات ذرعاً وجاشت قحةٌ ، وازدهت منى شرّيرِ
والوجود البغيض يعبث بالأحلام ، والكوخ مسرح للدبور
وأنين الشقيّ اسطورة العدل ، وكفّ الفتيّ في تقتير
أيها الموت ، من تكون ؟ أأنت الخوف في مهجة الجبان الحقير

✲

ايها الموت ، لم أزل بقية الآلام ، ابكي فما أبلُّ غليلا
لم أزل المح السرير ، فتنهلّ دموعي على الحبيب سيولا
وأرى النعش ، نعشها الأخضر المعبود ، يمضي بها قليلا ، قليلا
غاب عني ، كأنما هو اعراس شبابي أضعتها مخبولا
ايها الموت ، هل يطول عذاب القلب بعد الرحيل ، ام لن يطولا
لست ادري ، ولست تدري وعهدي بك يا موت تفعل المستحيلا

✲

لا تلمني يا موتُ ، ما أنا إلا دمعة اليأس في جفون الليالي
أنكرت نفسيَ الحياة ، فأيامي وجوم بعد الحبيب الغالي
كان كلّ الرجاء ، ان تقطع العمرَ ، خليّين من أسىً وملال
وإذا بي أظلّ وحدي غريباً تائه القلب ، ضائع الآمال
ازرع السفح بالأنين ، وكان السفح يا موت ، ملعباً للظلال
لا تلمني يا موتُ ، ها هو قبر الأمّ ، يرنو لصرختي وابتهالي

✲

عالَم الأرض ، لا أحبّك إلا خالياً من كآبة وعذابِ
وإذا كانت الحياة شقاء في شقاء ، فالويل للأحباب
هل هو القبر يستفيق مع الاطيار في موكب الشعاع المذاب
وأغنّيه في الصباح اناشيدي ، فيصحو من سكرة الاطياب
ايها القبر ، لا عدمتك قبراً أنت في هيكل الأسى محرابي
لا تلمني ... إذا مسحت بعينيَّ تراباً أحبب به من تراب

أبو العلاء المعري ومشكلة الزمان

بقلم ابراهيم شكر الله

٥

ooo

الاسترضاء عن طريق قبول الحرمان

وهذا السعي لاستبقاء هذه القدرة الشاملة قاصرة على خدمة مطاليب ورغبات العصابي يستتبع في منطقه الفريد ان يعمل دائماً على كسب حبه وحدبه اي باسترضائه ، وهذا يتم في الحالات الباثولوجية بان ينزل العصابي بنفسه الوانا من الحرمان والتعذيب الذات التي يراها الوسيلة لاسترضاء موضع الركون واستجداء حبه ، ومثل هذا الامر ومابنطوي عليه من كبت لمنابع الحياة يطلق طاقة عدوانية ضخمة نحو موضوع الاسترضاء على انها غالباً ما ترتد عنه — يردها التوقير الاول له وضرورة عبادته فهو صاحب السلطان الاكبر والقوة التي لا تدانيها قوة — ترتد الى الذات — كما يقول فرويد — لتزيد من قسوة الانا الاعلى (Super Ego) وعسفها بالنفس فيشتد القلق والاضطراب ، بينما تزيد القدرة المودعة في موضع الاسترضاء (الاب ، او من يقوم مقامه) وتتضخم وتتخذ صوراً شديدة المبالغة .

ومن ثم كان اجتماع هذه القدرة الشاملة والتدميرية المذلة للنفس في زمن المعري الذي هو ايضاً كما رأينا — في وضوح نادر — الاب الذي كان موضع الركون الاول والذي اسقط ما كان يجتمع حوله من علاقات وشحنات عاطفية متناقضة على الزمن . فزمن المعري قدير بالتقديس :

ان كانت الاحبار تعظم سبتها   فاخو البصيرة كل يوم مسبت

وقدرة الدهر تحيط كل شيء بل ان شباكه الهائلة قد اطبقت على البشرية جميعاً ، بل على جبريل وذات الله ، كما اوضحناه في مقالنا الثاني .

وقدرة الزمن التدميرية هذه تظل تزداد وتتخذ صوراً هائلة وتصبح الاله الذي اقامته نفس المعري المريضة لذاتها ، تقدم له البشرية والكون كله قربانا يفتك بها كل يوم في سيره المدمر وتذل نفسها امامه بالوان الحرمان والخضوع للمحابس وقبول الموت وسط هوج الحياة .

فتراه بعد عودته من بغداد سنة ٤٠٠ هجرية ينزل في بيته لا يبرحه ويرد نفسه عن متع الحياة جميعها ولا يأكل غير البقول، بل يمتد هذا الاسلوب في اخذ النفس بالعسف والحرمان في كتاباته فيخضع نفسه لما لا يلزم في القافية وفي المعنى على السواء في اللزوميات وفي كتاب الفصول والغايات .

ولعله لا يوجد ابين ولا افصح في الدلالة على ما سقناه من ان هدف هذا الاذلال للنفس والتضييق عليها انما كان استرضاء للاب او من يقوم مقامه من قول ابي العلاء نفسه من انه قصد من كتابيه اللزوميات والفصول والغايات — ومن التزامه فيها ما لا يلزم — « الى تمجيد الله والثناء عليه » . فهو هنا يقرن بما لا يدع قولاً لقائل بين العبادة وبين الاسترضاء عن طريق الخضوع لالوان التضييق ورياضة النفس .

وهذه سمة عامة نراها في اكثر الخبرات الدينية المنحرفة . ففي هذه الخبرات — التي رأينا نشأتها في الموقف الركوني الباثولوجي الاول تجاه الاب — يصبح الله جديراً بالطاعة والتوقير والعبادة ليس لصفات خلقية سامية تتميز بها ذاته كالعدالة والحب لبني البشر — بل لان له القدرة والسيطرة على مصائر الناس . ومن ثم كانت الطاعة الزم واجبات هذه الاديان والمعصية اكبر الاثام التي يقترفها الانسان .

وعلى النحو نفسه الذي صيغ فيه إله هذه الاديان وقد جمع بين اطراف القدرة الشاملة والوجود المحيط نرى الانسان وقد نضت عنه جميع صفات القوة والقدرة واصبح عبداً ذليلاً لا

حول له ولا طول الا بما يستطيع ان يكتسبه من الهه عن طريق استرضائه بتعذيب الذات وقبول الحرمان واذلال النفس . وفي هذا المعنى يقول كالفن [1] — زعيم الكالفينية البروتستنتية — « نحن لا نستطيع ان نفكر في انفسنا — كما يجدر ان نفكر فيها — دون ان نصب احتقارنا وازدراءنا الشديد على كل ما نحسبه رائعاً فينا ، ومثل هذا الاتضاع هو في الواقع خضوع غير متكلف ولا متصنع لعقل غمره واستبد به احساس طاغ ببؤسه وفقره ، وهما الصفتان اللتان اطلقتها كلمة الله عليه » .

وهذه الخبرة التي يتحدث عنها كالفن — الخبرة التي تتضمن ازدراء كل ما في النفس البشرية وخضوع العقل لاحساس طاغ بفقره هو جوهر الديانات التي يطلق عليها اريك فروم [2] « ديانات السلطة » التي يراها فروم قائمة كذلك في مذاهب زمنية تتنكر فيها صورة الله في صورة الفوهرر على نحو ما هو مشاهد في الحركات الفاشية . فالفوهرر « اب الشعب » وهو موضع العبادة والتوقير والخضوع ، وهو يجمع في شخصه جميع صفات القوة والعظمة بل هو معصوم لا يأتيه الباطل ولا يعتوره النقص وحياة الفرد بالنسبة له يجب ان تقعد بها التفاهة وانتفاء القيمة ، التي لا تسترد . ولا يحقق الانسان جوهره ويرتفع الى عظمته ، الا اذا استمدها من الزعيم عن طريق قبول الحرمان في سبيله وتحمل العسف والمذلة ، ثم ارتضاء الموت حتى يزداد الزعيم مجداً ومنعة .

ومثل هذه العلاقة القائمة على المذلة والتي تخفي في طياتها الكراهية واحساس الخطيئة نراها كذلك في علاقة اليهود بالههم الذي اودعت فيه جميع صفات السطوة والغضب الهائل والعنف الشديد ، والذي كان يتكلم بقصف الرعد ويتحرك في عصف الريح ووسط الدخان ويسكن قمة جبل بركاني كان لا يفتأ يرسل حممه على بشرية متضعضعة متهالكة . هذا الاله الذي يقول في حزقيال (٥ — ٢٢) « ثلثك يموت بالوباء وبالجوع يفنون في وسطك ، وثلث يسقط بالسيف من حولك ، وثلث اذريه في كل ريح واستل سيفاً وراءهم ، واذا تم غضبي واحللت سخطي عليهم وتشفيت يعلمون اني انا الرب تكلمت في غيرتي اذا اتممت سخطي فيهم . »

والذي يقول في خروج (٣٢ — ٣٧) فقال لهم « هكذا قال الرب اله اسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب الى باب في المحلة واقتلوا كل واحد اخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه . ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل ، وقال موسى املأوا ايديكم اليوم للرب حتى كل واحد بابنه وباخيه فيعطيكم اليوم بركة . »

هذه التعسفية الالهية التي لا تحدها روابط ولا تعينها بواعث غير اشاعة الخوف وتضخيم فكرة القوة والسطوة الشاملة جعلت موقف اليهود من الههم يهوه موقفاً تسمه الذلة والعبودية المرة ، وحثو الرؤوس بالتراب تذللاً له واستدراراً لعطفه . وجعلت اظهر سمات الدين اليهودي واقوى مظاهره الناموس الذي هو عبارة عن مئات النواهي والاوامر التي يجب ان يلتزم بها اليهودي في كل خطوة يخطوها وعمل يقوم به ، سواء في الحقل ام البيت في الصحوة ام النوم ، في الطعام او الشراب . ورغم تعدد هذه النواهي وكثرتها كثرة بالغة يجدها التلمود غير كافية لاذلال النفس امام الله واسترضاءها له ، فيقول ان اليهود نسوا في ايام المناحة على موسى ثلاثة آلاف من هذه النواهي .

التناقض الوجداني في الموقف من الاب والام

ولكن هذا الحرمان الذي يحاط بالنفس والاذلال الذي ينزل بها ويعصف برغبتها في النمو والتفتح وما ينطوي عليه من كبت لمنابع الحياة يطلق طاقة عدوانية ضخمة نحو موضوع الاسترضاء ، ويثير انواعاً من الحفيظة والغيظ ، يتحول في ظلها موضع الاسترضاء هذا الى صورة المضطهد المستبد ، وتتحول الشحنة العاطفية الى كراهية وحقد ، بل الى الاستخفاف والازدراء احيانا . وان كان هذا يتم على نحو من التنكير والاخفاء والالغاز بحيث لا تبين للعقل الواعي معالم الاب او الاله الذي يكون عادة موضع الاكبار والتوقير والعبادة .

فنرى بين اليهودي ويهوه عداء خفياً مستمراً يصبه اليهود على خلفاء الله الاحياء على الارض ومن يتخذون صورته الدنيوية وهم الانبياء فتصبح اورشليم قاتلة الانبياء والمرسلين وفي ارميا (٢ — ٣) « اكل سيفكم انبياءكم كاسد مهلك . »

وفي المعري ايضاً نرى ذلك الحقد الدفين على الزمن مقترناً بما يحيطه به من اجلال واكبار لسطوته . بل نرى اكثر من هذا ، نرى ما نراه عادة عند الاطفال في موقفهم المتناقض نحو آبائهم عند التحليل النفسي من استخفاف وسخرية .

(1) Johannes Calvin:Institutes of the Christian Religion
(2) Eric Fromm : Psyclie-analysis and Religion.

فالزمن عند المعري ابله :

عش بخيلاً كاهل عصرك هذا وتباً له فان دهرك ابله

وهو شيخ خرف يحق بالهتر والمهانة على نحو ما سقناه من ابيات في اول المقال .

على ان مركب الدنيا – الأم – الزوجة هو كذلك يجمع بين اطراف تناقض وجداني من نوع آخر يختلف بين القبح والجمال والابن يقبل عليها ثم يزور عنها على نحو مانراه في الابيات التي سقناها في المقال السابق .

وهذه ظاهرة مألوفة في الموقف الاوديبي، الاانها اشد ظهوراً او اعنف في حالة طفولة استبد بها المرض او احاطت به عاهة معيقة على نحو ما كان في طفولة ابي العلاء .

فان احساس القدرة الشاملة السحرية الذي اسلفنا الحديث عنه يظل قائماً ما دامت استجابات الطفل ناجحة، اي ما دامت المعونة التي يستمدها من الأم كفيلة بارضاء مطالبه المحدودة . وفي هذا يصبح احساس الراحة والانبساط موازيا الحدب والعناية، مما يستتبع ايضاً ان يكون احساس الطفل بالمرض والالم موازيا لاحساس يقترن به بانه لم يعد موضع الرعاية والحدب وانه مكروه مرذول . وفي هذه الحالة تحمل الام مسؤولية كبت هذه الرغبات وتتمثل في احلام الطفل وخيالاته باعتبارها نحو قاعدوانيا يناصب الطفل الكراهية والحقد، اي ان الشحنة العاطفية تتحول من ايجابية فيها الحب الى سلبية فيها القسوة والبغض .

ومن ثم كان قول كاردنير ان المرض هو من اول المؤثرات التي تشيع الاضطراب في احاسيس الطفل العادية بأنه موضع الرعاية والحدب . وما يقوله ايضاً من ان الطفل كثيراً ما يعتقد ان العلاج الطبي هو محاولة من الديه لايقاع الاذى به .

وكل من قرأ سيرة ابي العلاء وما روي عنه يحس كيف كان احساسه مرهفاً بمرض الجدري الذي عصف ببصره عندما كان في الرابعة من عمره . وكيف انه ظل حتى كهولته وهو لا يذكر من الالوان ولا يعرف منها غير الحمرة وذلك لانه البس ثوباً احمر لما جدر .

على ان الأم عند المعري لا تبدو في هذا القبح المنفر فحسب بل هي كذلك تظهر – خلال تخفيها – كعروس في ثوب الغول:

فيقول ابو العلاء :

ليس فعل الدنيا بفعل عروس بل هي الغول شأنها التغويل

وكذلك :

رأى الاقوام دنياهم عروسا وما لقيتهم الا بغول

وكذلك :

ظن الحياة عروساً خلقها حسن وانما هي غول خلقها شرس

ومدرسة فرويد ترى في صورة الغول رغبة في العودة الى دفء وحماية رحم الام التي ترى ان انفصال الطفل عنه وخروجه منه الى العالم الخارجي الحافل بالخطر والمخاوف اول صدمة نفسية Trauma تعتور الانسان ولعلها قد ترى سنداً لرأيها هذا بيت أبي العلاء الآتي :

وام دفر فتاة سوء تخبؤني في ثرى مهال

فالقبر وباطن الارض هما ايضاً رمزان لرحم الام . على ان المسألة في ظني اخطر من هذا وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالموقف الركوني الذي كان المحور الذي دارت حوله حياة ابي العلاء وارتبط ارتباطاً سببياً اصيلاً بعاهته ، وتفسير هذا القول يحتاج الى بعض استطراد .

ان الحاجة الى الحماية هي اولى حاجات الطفل واهمها، وعندما لا يتم ارضاؤها فان الطفل يتصور نفسه عادة في الاحلام والاخيلة وقد احاط به العجز وقعدت به الخيبة عن القيام بأي عمل ، او

يتخيل نفسه بين انياب حيوان او غول يأكله .

ورمزية الاكل هذه شائعة، وهي لا شك تعبير عن انعدام احساس الطفل بالحماية والرعاية . وهي عبارة عن تحول للرغبة العادية الاولى للرضاعة (التي هي عدوانية في اساسها ففيها اتخاذ موقف ايجابي بالنسبة للعالم الخارجي) وكانت ترمز لحالة تكتمل فيها اسباب الحماية والعطف الى نظيرتها الماسوكية السلبية .

ولنتصور الامر على هذا النحو ، ان الرضاعة تمثل عند الطفل تكيفاً ناجحاً موقتاً مع العالم الخارجي . بل ان الرد الرضاعي هو اول الاسلحة الناجعة التي تزود بها الطبيعة الطفل الحديث المولد . وحول هذا التكيف الاولي الناجح يتجمع عدد من الانطباعات لا تلبث ان تغور في اعماق النفس البشرية وتصبح فلكا تدور فيه الوان من التفكير واشكال اخرى من التكيف . ويكون انطباع الطفل عن هذا التكيف الاول الناجح على هذا النحو .

ـ انت (يا أمي) وانا شيء واحد .

ـ اني بأكلي اياك (عملية الرضاعة في مفهوم الطفل) اسيطر على كل شيء، اني اصبح انت فاستطيع ان اعمل ما تعملينه (الموقف الركوني السحري)

ـ وان انفصل عنك معناه ان افقد السيطرة عليك ومن ثم السيطرة على العالم .

ـ اذا صرخت وبكيت (وهذا تكيف فمي ناجح آخر شأنه شأن الرضاعة) تستجيب لي القوى السحرية .

وفي هذا نرى كيف يكون تمثل الطفل لعملية الرضاعة الناجحة على انها اكله لامه . وهي حالة يستعيدها الانسان في الفشل في عملية تكيف تالية وكلما احس ان منابع حياته قد اخذت تذوي . فيتصور نفسه في طفولته الاولى حينما كانت هذه الرضاعة تكيفاً ناجحاً . ويحدث غالباً ان يكون التمثل للموقف الاول بعد تحويله من ايجابية الى سلبية ماسوكية تتفق مع الحالة النفسية الجديدة التي يحيطها الفشل فيتصور الطفل نفسه وهو يؤكل .

الصدمة النفسية الثانية واقامة المحابس

ورغم جميع هذا فثم سؤال واحد يظل حائراً لاجواب عليه وهو : لماذا ، ونحن نقول بان انحراف شخصية المعري وعدم استوائها يعود الى منابع طفولته ، لم يظهر هذا الانحراف ولم يتخذ شكلاً واضحاً الا بعد عودته من بغداد وهو رجل يشارف الاربعين حينما انزل نفسه في المحابس وامتنع على الدنيا والتزم في كتابيه اللزوميات والفصول والغايات ما لا يجب الالتزام به من الوان الضيق والتطبيع القاسي للنفس والعقل والجسد .

والجواب على هذا يستلزم تقصي حياة المعري وما اختلف عليها من صنوف الاحداث .

لقد شاهدنا في طفولته الاولى الصدمة النفسية (التروما) التي نتجت عن موقف طفولي مضطرب وعن عزوفه نتيجة لعاهته عن الخروج الى العالم وبقائه رهين اول محابسه ـ في معنى لم يخطر له ـ محبس ارتباطه بأمه وابيه في علاقة ركونية احتدمت فيها المناقضة العاطفية ، وتلاقت الشحنات الايجابية والسلبية الحب والكراهية ، والخوف والاستهتار وما يصحب جميع هذا من احساس عميق متأصل بالاثم العظيم .

ثم مات والد ابي العلاء وهو في سن الرابعة عشرة فاصبحت امه له وحده ، وتدعمت علاقته بها مازاد في حدة الموقف الركوني واغلق امام ابي العلاء باب الاستقلال الذاتي وتخطى هذه المرحلة الاولى الى غيرها من مراحل النمو والنضوج .

على اننا نلمس في سيرة ابي العلاء محاولات متصلة للتخلص من هذا الموقف الركوني . اولها في سفره وهو في سن العشرين الى طرابلس . ولعل كثرة ترداده في هذه السفرة لذكر ابيه المائت لما يفصح عن حدة الموقف الاوديبي في نفسه ، وانه احس كما ان في خروجه من كنف امه الى العالم ثورة عليها وضيقاً بها فان فيه كذلك مصالحة للاب وسعي للاندماج فيه والتحول عن طريق هذا الاندماج من دور الابن الى دور الاب بما في هذا من استقلال واحساس بالسطوة .

فيقول الراجاكوتي [١] « بعد رحلته التي رحلها الى امهات بلاد الشام اختارها بعد وفاة والده لانه صرح بنفسه انه لم يتعلم بعد العشرين من معرض ولا شام . وكان الرأي له بعد مفارقة والده الرحيم وادبه العميم ان يتعلل بلقاء الرجال ويتسلى بشد الرحال »

وهذه هي الصورة النموذجية التي تتخذها الثورة على الموقف الاوديبي ، الخروج من البيت الذي يمثل الام الى لقاء الرجال الذين يمثلون الاب ومجتمعه .

(١) عبد العزيز الراجاكوتي : ابو العلاء وما اليه ص ٨٤ ، ٨٥

ولكنها محاولات من جانب ابي العلاء لا تلبث حتى تبوء بالفشل ، فشلا تذيئنا به العبارة التالية في رواية الراجاكوتي :
« وربما ضاق ذرعاً اذ لم يجد في انحاء بلاده والاقطار ما يروي غلة حران .. »

فهو رغم حافز النمو والنضوج لا تزال تنازعه نفسه للعودة الى امن الام وفيئها الوارف .

على ان محاولة المعري الحاسمة للخروج من محبس امه كانت في رحلته الى بغداد ، مدينة العلم وخزائن الكتب ومجالس الادب وذيوع الصيت والجاه والمجد العريض . ولا جدال في انها تمثل للمعري الانعتاق الاكبر ، وحنينه لها منذ اول شبابه يظهر في هذا البيت :

كلفنا بالعراق ونحن شرخ   فلم نلمم بها الا كهولاً

ولكن سفرته هذه فيما يظهر اثارت امه التي حاولت في رواية الدكتور طه حسين [1] ان تصرفه عنها ولكنها اخفقت . وقد بحثت طويلاً لأعثر على المصدر الذي استقى منه الدكتور طه حسين هذه الرواية فلم يصبني التوفيق ، على اني رأيت في كتاب الراجاكوتي ما يشير الى ان الموقف كان مثقلا عنيفاً يحمل نذر المأساة فيقول : « انه استأذن امه البرة في امر هذه الرحلة فاذنت وكانت تحسبها هُنيّة ومُديّدة وبرُيهة الا انها طالت الى ان وافاها الحمام » .

وسواء اسافر المعري رغم ارادة امه ، أم بعد ان بذل لها وعداً متعجلا بسرعة العودة وهو يضمر عدم البر بوعده فالنتيجة في نهاية الأمر واحدة . فقد اقام ابو العلاء في بغداد فاصاب بعض المجد ولكنه ايضاً لاقى كثيراً من الكيد له والاستصغار لشأنه مما ترك في نفسه الكبيرة اثراً مريراً .

فمن الرواية الخاصة بدخوله على الربعي وقول ذاك ليصعد الاصطبل (اي الاعمى) وخروج ابي العلاء مغضباً وعدم عودته اليه ثانياً ، الى دخوله مجلس المرتضى يوماً وعثوره بانسان سبه قائلا : « من هذا الكلب ؟ » ثم رد المعري متحديا ثائراً « الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً » ، ثم اخيراً تلك الرواية المشهورة لسحبه من رجله خارج مجلس المرتضى . وهي الحادثة المذلة التي سافر بعدها عائداً الى المعرة .

من هذه الحوادث على قلتها يظهر كيف ان محاولة ابي العلاء الخروج الى العالم واكتساب الشهرة وذيوع الصيت والتحرر من الموقف الركوني الاول قوبلت بالفشل والخيبة . وقد تم هذا على نحو مفعم بالذلة والاسى مما لا شك ارتبط في نفس ابي العلاء ارتباطاً سببياً بمحاولة ثورته على امه وتلمس اسباب التحرر منها ، ففي الحالات الباثولوجية يحس المريض ان ثورته على امه وخروجه من اسارها هو اثم نحوها وعقوق قد يجازى بالعقاب الالهي وانزال الاذى به ، وهذا ما احس به ابو العلاء . فلما عاد ليرى ان امه التي ثار عليها قد وافتها المنية استبد به احساس طاغ من الاثم والخطيئة زلزل كيانه وكانت هذه هي التروما الثانية ، فيقول مخاطباً اهل بغداد :

اثارني عنكم امران : والدة   لم القها وثراء عاد مسفوتا
احياهما الله عصر البين ثم قضى   قبل الاياب الى الذخرين ان موتا

ويبعث بكتاب الى اهل المعرة ينبئهم فيه بالتضعضع الذي انتاب حياته واعتزامه العزلة :

« فوجدت اقوى ما اصنعه ايام الحياة ان اختوت عزلة تجعلني من الناس كبارح الاروى من سانح النعام . وما اسمحت القرون بالاياب حتى وعدتها اشياء ثلاثة : نبذة كنبذة فتيق النجوم وانقضابا عن العالم كانقضاب القائبة من الثوب وثباتا في البلدان ان جلا اهله من خوف الروم . »

هذا التحول الصارم الباتر في حياة المعري جاء نتيجة الاحساس الطاغي بالاثم ورغبته في التكفير عنه — كان التروما الثانية التي زلزلت نفسه وعصفت بها ودفعته الى هذه العزلة الرهيبة التي احاطها الموت والفناء من كل جانب ولم يرتفع فيها غير صوت الخراب ولم يتحرك في ظلامها غير اطياف اب مدمر قاتل ، وأم تأكل اجنتها ، وابناء يضاجعن اخواتهن ، ثم صورة نفسه — نفسه المفردة المعذبة وقد انطوت على حب آثم وبغض آثم استبدا بها ودفعاها في متاهات الكون ، دائرة مع دورة الافلاك متخبطة بين غياهب النجوم ، متتبعة لخيط الزمن ، متعلقة بحبال الشمس ، تتأمل الفناء الاكبر حينما تصدم النجوم بعضها وتتهاوى الافلاك ويخلع المريخ عن كرسي عرشه ، ويموت خالق الموت الزمان — نفسه المفردة المعذبة تلك وقد وقفت على ركام الفكر البشري جميعه مبعثراً دون شكل او معنى تنتظر الموت وهو يقبل على مهل لا يحمل الخلاص وانما عذاباً جديداً يركب العذاب القديم :

وسرت عمري الى قبري على مهل   وقد دنوت فحق الخوف والهلع

القاهرة   ابراهيم شكر الله

(١) مع ابي العلاء في سجنه ص ٥٥

خمســون فلســا ..

بقلم سناء سعيد

°°°

– شتؤمر سيد ؟ جاي .. حامض !

– خلينة هسه . جيبيلي شوية ماي ، بعدين بعدين !

– كلاص ماي !

وابتعد « صانع المقهى » ليبحث عن رواد جدد ليسألهم ما يريدون .. وامتدت يد صاحبنا الى جيبه وأخذ يتحسس بأصابعه قطعة نقدية من ذوات الخمسين فلساً تنام في جيبه ، فيمر بأبهامه على وجهها . هذا الوجه هو (الصورة) وعلى هذا الوجه توجد (الكتابة) ، لقد لعب كثيراً ، في الزقاق مع الاطفال على فلس او فلسين وقد رآه (المرحوم) ابوه مرة فضربه ضرباً مبرحاً .. ومنذ ذلك الوقت لم يلعب مع الاطفال بل كان يقف عند باب الدار ويظل ينظر الى الأطفال الذين يلعبون وهو يبتسم بمرارة . وكان « حسن » ملعوناً جداً ، فقد كان يتعمد أن يسمعه صوت يده وهي تهوي مع النقد بقوة وبصفاقة ، فتنطبق عليه فوق الارض : طرة . لو كتبة ؟

ومنذ أن ترك اللعب مع الاطفال كان يضع في (قوطية) صغيرة من علب الحليب الفارغة التي التقطها من بين اللوازم المستهلكة التي كان الجنود البريطانيون يقذفون بها خلف اسلاك معسكراتهم ، فكان يضع فيها (خرجيته) كل يوم. حتى فتح (القوطية) ذات يوم فعد الفلوس التي فيها فوجدها أربعة وأربعين فلساً ، فأخذتها أمه ، وأعطته بدلها (درهماً) واحداً فضي اللون يلمع كالصفائح التي رآها تلمع خلف اسلاك معسكر البريطانيين ! لقد كانوا طيبين .. اولئك الجنود الشقر. لقد ذهب الى ساحة السباق مرة مع اصدقائه، وكان الانكليز يلعبون مع فرقة (المدرسة الثانوية) لعبة كرة القدم ، حتى ان (وداداً) اللاعب البارع اصطدم بلاعب انكليزي وتعارك معه ولكمه عدة لكمات ، وكان منفعلاً جداً وهو يرقب الحادث جالساً بين أقدام المتفرجين ، وكان قلبه يدق بشدة ويتمنى لو حطم (وداد) اللاعب الانكليزي .. يا الله .. ولكن اللاعبين فرقوا بين الاثنين وانتهى اللعب فذهب مع اصدقائه الى حيث كان بعض الجنود عند باب معسكرهم يقذفون بنقود من ذوات الفلس والفلسين في الهواء .. فيتجمع الصغار حولهم ويمدون يدهم كلٌ يريد ان يلتقط نقوداً ، وكان ان فعل ذلك ولكنه لم يصب شيئاً . وكان الظلام قد بدأ بالانتشار فعاد مع اصدقائه ، ولم يكن ابوه في البيت وكم فرح لذلك .. ولكن أمه هددته بأن تخبر أباه إن تأخر في العودة الى البيت ثانية !



وشعر بأصابعه رطبة حارة لزجة. والقطعة النقدية كانت قد فقدت برودتها، ولا شك في ان الجو كان في الخارج بارداً، فقد تجمع بخار كثيف على زجاج واجهة المقهى الذي كان قد

امتلأ بالكثيرين :

– ولك دورت جهار ..!.

– واحد جاي . اثنين حامض .!

وكان جهاز الراديو العتيق الذي يعلو رأس « الأسطة » يرسل بأعلى صوته (..نحن الشباب لنا الغد، ومجده، المخلد!)

– عمي !. أسطه ! شنو هذا ، دير الموجة على محطة دمشق بيها خوش أغاني!

(.. ورد حا اكتبلو .. على ورق الورد ....!)

– سلام عليكم !

وانتبه صاحبنا وبشيء من الذعر التفت الى الذي جلس بجانبه فقال باضطراب :

– الله بالخير .. تره تعذرني آني تارك التدخين !

– ما يخالف يابه .. بس شلونكم هسه؟

– على الله .. زينين !

ولما شعر صاحبنا بصانع المقهى وهو يقترب لاقتناص الجالس الجديد .. قام من محله .

– يابه .. تسمح لي تره عندي شغل مستعجل !.

ولم يسمع جوابه بل تقدم واستطاع بجهد جهيد أن ينفذ من بين الكراسي والمناضد والجالسين .. ومر من امام « الاسطة » فبصق في وجهه بكلمتين :

– ما شارب شي !

وفتح الباب الزجاجي حيث كانت عيون « الاسطة » تحدق فيه بسخرية وسخط .. ثم قذف بجسمه الى خارج المقهى ثم ترك الباب خلفه لينصفق بشدة وقسوة !

كان الجو بارداً ، والمطر ينزل ناعماً رقيقاً كخيوط الحرير والهواء يمسح وجه صاحبنا برذاذ المطر فيبعث فيه الانتباه والنشاط والحيوية! وكانت يده في جيبه تمسح على القطعة التي ما تزال دافئة .. يالهم من أوغاد ، ويا لها من عادة سخيفة « اسطة ، لا تأخذ ! » ... لقد هرب من المقهى ، من الذين يجلسون ، والا فعليه ان يدفع ، سحقاً لهم ، انه لم يشرب ، وكان يجب ان يدفع ثمن ما شرب ويشربون ، وهو لا يملك غير خمسين فلساً .

وتذكر أول « جلسة » له بالمقهى .. لم يكن يعرف شيئاً عن المقاهي

بعد ، وكان يعود من بيت عمه الذي اعطـــاه عشرين فلساً ليصبغ حذاءه الذي كان قذراً كقذارة وجه صانع المقهى ، وكان يمر من أمام «مقهى احمد آغا» فرأى بعض الناس جالسين يصبغون أحذيتهم ، فحذا حذوهم وجلس ، ونادى أحد الصباغين وبينما كان يساومه على الثمن اذا « بصانع » المقهى يقف عند رأسه يقول :

— شتشرب .. جاي ، شربت ، سيفون ؟

— ها ... عمي ، ما ، اشرب !

— بس ليش كاعد ؟.. هاي كهوة ، خوموخان !

إنه ما زال يذكر ، فقد خجل من نفسه كثيراً ، وأحس تجاه الصانع الوقح بحقد عميق ، ولم يكن يعلم بأن كل من يجلس يجب ان يشرب ، أجل ، اجل ، ولكنه كان يعلم هذه المرة فلم يشرب على الرغم من ذلك ، لأنه لم يرغب في ان ينفق ما عنده ، كل ما عنده ، كل ما تبقى عنده من راتب آخر اسبوع له في « مراقبة عمال الأشغال » .. فقد كان يقف ليراقب العمال من الصباح الى المساء لقاء دريهمات ، حتى قيل له بأن العمل انتهى ، انتهى ، ونقوده هي الاخرى انتهت ، إلا هذه الخمسين التي يريد ان يحفظها ليشتري بها خبزاً ، أو ..

— تكة .. كباب .. فشافيش !

والتفت واذا بعدد من العمال والحمالين قد أحاطوا بالرجل الذي أخذ يقلب شرائح اللحم على النار الموقدة أمامه ويصيح :

— تكة ، خوش تكة .

كان ذلك على رصيف الشارع الذي يمتد من الجسر القديم موازياً النهر الصغير ، وكان صاحبنا جائعاً ، والهـواء يهب ويمسح وجهه برذاذ من المطر الذي أخذ يهطل بغزارة ، والهواء يقوى ، آه لو كانت معه قطع اخرى ، وبلع لعابه ، وأخرج يده من جيبه ورفع « ياخة » سترته ثم اسرع في السير ، وكان البيت بعيداً ، بعيداً جداً يحتاج الوصول اليه الى وقت طويل من السير ، من التعب ، من الجوع ! وكانت المصابيح تهتز وترتجف من البرد وهي تنام على وجه الشارع المبلط الذي بدا مبللاً بارداً ، وكانت خيوط المطر التي تشبه خيوط الحرير ، تظهر بوضوح كلما شق ظلام الطريق ، ضوء سيارة سريعة تمر وتقذف بالوحل على القلائل من المارة الذين بدأ بعضهم يهرولون ويركضون ، وكان البعض منهم يمشي حافي القدمين ، ولقدمه ـ وهو يلتصق بالأرض المكسوة بالماء والطين ثم يبتعد عنها ـ صوت كالصوت الذي كانت تصدره قبضة امـه وهي تعجن الطحين ، ولكنهم يشترون الخبز من السوق الآن ، وهو جائع والطريق طويل ، طويل ، وهذه عربة تمر ، تنقل ركاباً أربعة ، لا شك في أنهم اغنياء .. وقد اضحت قطعة من ماء ، وهذه عربة اخرى تمر فارغة .

— (ع ... ع .. عربنجي ! .. ساعة بيش ؟) ووقفت العربة وظن صاحبها بأنه يريد ركوبها .. (— ولك هـــذا وكت ساعة ؟) .

ثم ألقى بسوطه على ظهر الجوادين بقسوة ووحشية وشرعت الحوافر تبعث صوتاً غريباً يمتزج بصوت العربة القديمة والجوادان يتحركان بتعب وضعف وتراخ ، تماماً كما كان « يهرول » في « حصة » الرياضة مع الطلاب في ساحة المدرسة ، وكان يكره معلم الرياضة « عز الدين أفندي » كثيراً . لكنه كان يحب مشاهدة سباقات كرة القدم ، وكان يتأخر في العودة الى البيت أحياناً . فيقوم مع بعض اصدقائه بالتعلق خلف العربات السائرة نحو « محلتهم » . ولمَ لا يفعل الآن ؟ ألأنه كبير .. كلا.. كلا إن احداً لن يراه ، فالشارع مقفر إلا من البرد والريح التي بدأت تصفع وجهه بسيل قوي من المطر .. ليسرع .. نعم.. نعم .. هكذا .. وتعلق بالعربة من وراء .. وانكمش على نفسه وتكور خلف العربة بشكل غريب ، وكان تعباً وجائعاً يدق قلبه بشدة ، وكان يخاف ان تأتي سيارة من وراء العربة فتكشفه اضواؤها .. حتى وصلت العربة الى الساحة التي يتفرع منها « الدربونة » الموصلة الى بيته الذي يعيش فيه مع أمه .. فترك العربة سريعاً وابتلعه الزقاق .. حتى كان يدخل البيت فتستقبله امه قائلة :

— عيني وين جنت ؟ أخاف أخـذت برد !..

— لا ما ما .. لا . وعندما دخل الغرفة القديمة قالت أمه :

— عدنا شوية خبز ومسوية جـــاي . لكن للصبح ماعدنه شي ..

— زين آني عندي خمسين .. ومد يده الى جيبه فلم يجد للقطعة النقدية أثراً ، وتحسس جدران جيبه.. واذا به يجد ثقباً. ثقباً جديداً كتلك التي أخذت تنتشر في أرجاء ملابسه القديمة التي يرتديها منذ وقت ليس بالقصير !

كركوك ـ العراق

سناء سعيد

موطن الغراب

*

أعمر في كل يوم قباب
اشيّدها فوق هام السحاب
وامسحها بالندى والضباب
وانثر فيها اللآلي العجاب
زخارفها من جناح الغروب
وأنفاسها
من رياض السهى
سلال طيوب

ولله فيها ظلال
يحج اليها الخيال
ويرشف كنه الجمال
ويسبر غور المحال

وللعندليب نداء حبيب
لطيف رفيق نأى من قريب
أطلّ غريباً وولى غريب
فلا هو حيّا ولا ودّعا
ولا قال أنّي غدا مزمعا

قباب قباب
تتيه على سدرة المنتهى
إليها الرغاب
تموت ظمىً أو تعبّ السراب
وفي فيئها يرقد المشتهى

وفي كل يوم أرى العاصفه
ترود مزمجرة قاصفه
تذرّ الخراب
تهدّ القباب وتمحو القصور
وتجعلها حفنة من قبور
يمجّد فيها الفناءَ غراب
وينعق بوم وتعوي ذئاب

فيا تربة من حطام المنى
ومن ذكريات شذا وسنا
سألتك أن تُطلعي السوسنا
فقلبي وقلب حبيبي هنا
وادناهما في بقايا القباب
رفيقي هوى ورفيقي عذاب

اللاذقية رياض الازهري

ملتن

بقلم الكاتب الانجليزي ا. و. فيرتي

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

*

تقسم حياة ملتن الى ثلاث مراحل محددة بوضوح. المرحلة الاولى وتنتهي باوبة الشاعر من ايطاليا في سنة ١٦٣٩ والثانية بعودة الملكية سنة ١٦٦٠ حين اتاح له انطلاقه من قيود السياسة تذكير العالم بانه كان شاعراً عظيماً. والمرحلة الثالثة وتنتهي بوفاته في سنة ١٦٧٤. ويعود (الفردوس المفقود) الى آخر هذه المراحل ولكننا نرى مع ذلك ايجاز الحوادث المهمة في غضون هذه الحياة برمتها.

ولد جون ملتن في التاسع من ديسمبر سنة ١٦٠٨ بلندن. وكما يقول: انه انحدر من عائلة شريفة محترمة. وكانت ثمة عائلة من آل ملتن سبق لها ان استقرت في اوكسفورد شاير منذ عهد الملكة اليزابيت. وقد تثقف ابوه في مدرسة من مدارس اوكسفورد. ولعله غدا مرتلاً في احدى مدارس الترتيل العائدة الى الكلية فتشرب بالعواطف الانكليكانية مما جعله ينضم الى الكنيسة الانكليزية الرسمية. ولهذا حرمه والده الكاثوليكي الارث. فاستقر في لندن متخذاً مهنة الكتابة والمحاماة، لان الكتابة في تلك الايام كانت تجمع بين مهنتي المحاماة والكتابة نفسها. ويبدو ان هذه المهنة كانت مهنة رابحة. ولا شك في ان جون ملتن الشاعر سمي باسم ابيه وانه صادف احوالاً سهلة رضية. وقد تزوج حوالى سنة ١٦٠٠ فكان له سبعة اولاد وقد توفي البعض من هؤلاء في مرحلة الطفولة. أما الشاعر فكان الولد الثالث.

ولا شبهة ان ملتن الاب كان رجلاً مثقفاً ثقافة واسعة وخاصة، فانه كان موسيقياً كاملاً وملحناً قدّر لاغنياته ان تنشر جنباً الى جنب مع اغاني بايرد واورلاندو وجيبتر وغيرهم من الموسيقيين في ذلك الوقت. والى أبيه كان الشاعر مديناً بحبه للموسيقى التي نرى لها عنده تلميحات كثيرة متكررة في الاشعار[١] ولما ادرك والده نفسه ما في ابنه من رجاء واحتمال لمستقبل عظيم بذل كل ما في وسعه لتهذيب الصبي تهذيباً راقياً. وترينا ابياته في قصيدته (إلى أبي) ما كان من وشائج عميقة من المحبة والود بين الاب والابن تعدت نطاق الالفة الاعتيادية.

وفي قرابة سنة ١٦٢٠ ارسل ملتن الى مدرسة القديس بول. وبغض النظر عن الحياة المدرسية الاعتيادية فان نفوذين آخرين اثرا فيه تأثيراً خاصاً، فالمدير كان استاذاً معروفاً في اللغة الانكليزية وقد طبع كتاباً في النحو يضم مقتطفات للشعراء الانكليز وعلى الاخص الشاعر سبنسر. ويرجح أنه ادى ما في مكنته في سبيل تشجيع ملتن والاخذ بيده في تذوقه المبكر للشعر الانكليزي[٢].

ثم ان كوليت مؤسس مدرسة القديس بول وضع منهجاً خاصاً لدراسة البعض من الكتاب المسيحيين الاوائل. ويقال ان تأثير هؤلاء يمكن استقصاؤه مباشرة في اشعار ملتن. ويمكننا ان نخمن في بعض الاحيان انه تعلق بالموضوعات المقدسة بسببهم[٣]. وفي الوقت الذي كان ملتن في مدرسة القديس بول كان له معلمه الخاص في البيت ويدعى توماس يونك. وهو رجل

---

(١) كان ملتن مغرماً بالارغون (انظر قصيدته المتشائم Il Penseroso الملاحظة ١٦١) وفي خلال مكثه في هورتون قام بجولات متعددة الى لندن ليسمع ويحصل على معلومات ولعل حصوله عليها كان مع هانري لوز وذلك فيما يخص الموسيقى. ذلك بان العصر كان عصر التطور الموسيقي العظيم. «انظر – معرفة ملتن للموسيقى – بقلم دبليو. ايج هارو – محاضرات في ذكرى ملتن – سنة ١٩٠٨).

(٢) انظر (ملتن التلميذ والمعلم) للكاتب ليج سنة ١٩٠٨

(٣) يقول اوبري في مؤلفه الطريف (حياة ملتن): «انه كان في سنة ١٦١٩ شاعراً مع انه لم يكد يتعدى العاشرة من عمره كما تشير الى ذلك صورته – وهذه الصورة من رسم كورنيليوس جانسن».

اسكوتلندي غدا بعد ذلك قساً بيوريتانياً معروفاً . ولا شك في انه اوحى الى تلميذه بكثير من عواطفه البيوريتانية .

وقد تمتع ملتن بفرصة فريدة ، هي ترعرعه في بيئة مثيرة وحياة بيتية مثقفة . ولا يدرك الكثيرون ان كلمة الثقافة تعني اي شيء محدود او مرغوب فيه قبل دخولهم الى الجامعة . وعلى اي حال فان الحياة المنزلية عنت اشياء كثيرة لملتن من بدايتها وهي لم تقتصر على اهتمامه ومتعته الواسعين حسب ، بل تعدته الى كل ما في التشجيع الفعال من معان حيال الادب والدراسة . وترك ملتن مدرسة القديس بول سنة ١٦٢٥ .

وليس في اشعاره الانكليزية الباقية ما يؤرخ من ايامه المدرسية سوى قصيدة واحدة هي (في وفاة طفل جميل) . غير ان هناك من الادلة ما يشير الى نظمه الكثير من الشعر في هذه الحقبة بالانكليزية واللاتينية . ولا شك ان تدريبه المبكر كان له شأنه الاكبر في ذلك ، لانه وضع الاساس لاطلاعه الواسع الذي يجعل (الفردوس المفقود) كتاباً فريداً بسبب تنوع اهميته واختلاف ما يعرضه من مشكلات مثيرة .

ثم التحق ملتن بكلية (كرايست) في كيمبردج في فصل عيد القيامة سنة ١٦٢٥ واحرز اجازة (بي . أي) سنة ١٦٢٩ . وتقدم الى نيل الماجستير سنة ١٦٣٢ وفي السنة التي تلتها ترك كيمبردج . ولا ريب ان الفكرة الشعبية عن صلة ملتن بالجامعة ستبقى مصبوغة ابداً بقصة جونسون تعسة الحظ ومؤداها ان الشاعر (كابد الاصلاح الجسدي - الضرب - امام انظار الناس) من اجل اساءة مجهولة الاسباب . ولكن خير الثقات يرفض هذه القصة لاسباب عديدة . وعلى كل فمن المؤكد ان ملتن عانى بعض الصعوبات المهمة مع معلمه في اوائل سنة ١٦٢٦ . مما ادى الى نقله من كيمبردج لاسابيع قليلة وتحويله من صفه وايداعه بعهدة استاذ آخر وذلك على اثر عودته الى الجامعة في آخر الفصل . وقد تكلم على الحادثة بمرارة في قصائده اللاتينية في حينه كما تكلم بالمرارة نفسها عن كيمبردج بعد سنوات .

ومن جهة اخرى فانه امضى بلاء الحرية سبع سنين في الجامعة واستنكر بقوة الاتهامات التي وجهت اليه في قضية (سميكتيمنس) هذه الاتهامات التي ذهبت الى حد القول بانه كان في شقاق مع المسؤولين في كليته . وقد انتهز ملتن فرصة سنة ١٦٤٢ فكتب قائلاً : « اني اقر علناً بذهن ملؤه الشكر والامتنان باني وجدت عطفاً فوق العادة واحتراماً بين ايدي الرجال المثقفين اتباع الكلية التي قضيت فيها عدة سنين . هؤلاء الرجال الذين اظهروا رغبتهم واعتزازهم ببقائي في ساعة رحيلي بعد اخذي لشهادتي كما هي العادة وانا متأكد من محبتهم الطيبة تجاهي ، وشاهدي على ذلك هذه الرسائل العديدة المفعمة بالرأفة والحب والاحترام سواء اكان ذلك قبل ذلك الوقت ام بعده[1] »

واذا نحن دققنا النظر في هـــذه التلميحات الواخزة عن كيمبردج التي يمكن ارجاعها الى فترة الغليان في حياته لرأينا ان الشعور الذي تمثله لا يكاد يتعدى مرحلة من مراحل تعصبه اللاهوتي . مقت ملتن الكهنوت ، وهذا ما جعله بعد الجامعتين معقلين لما كان يمقته اشد المقت . (على ان ثمة انصافاً في هجائه وتنديده) مع انه لم يتوان عن تسمية الجامعتين (بدور حضانة الخرافة) ولم يتورع عن المضي في هذا المجال الى حد القول (ان دور الحضانة هذه لم تكد تشفى من فظاظة العصور البربرية حتى أسلمت قيادها الى سفسطة القسس التعيسة) بالاضافة الى رجعيتها في الاساليب التربوية) ويمكن ان نفترض وبانصاف ان ملتن العالم والشاعر وقد اختار ان يقضي سبعة اعوام في كيمبردج كان مديناً لها اكثر من ملتن المناقش الصعب الذي لم يكن يقر بذلك او يعرفه . وقد برهن على كونه شاعراً قبل ان يدع الجامعة سنة ١٦٣٢ وذلك متى ما عرفنا ان قصيدته القصيرة الرائعة (في الموسيقى المهيبة) وقصيدته (ترتيلة الميلاد) سبق لهما ان نظمتا سنة ١٦٢٩ .

استقر والد ملتن في هورتون في بكنكهام شاير ، والى هنا عاد الابن في يوليو سنة ١٦٣٢ ، ولعل ذهابه الى كيمبردج كان في قصد الحصول على مؤهلات في سبيل الوظيفة ولربما كانت الكنيسة مبتغاه[2] . ولم يمض غير وقت يسير حتى نبذ هـذا الهدف ، ويبدو انه رجع الى بيت ابيه وعمل فكره على نبذ أي وظيفة مهما كان نوعها . واختار بدلاً من ذلك ان يمضي جل اوقاته في الدراسة واعداد نفسه بالضبط الذاتي الحامي وبالتطبيق الفعلي في سبيل الحدث السامي المقدس الذي كانت حياته برمتها تتجه اليه . ولم تكن هذه الغاية غير عزمه المتواصل لتحقيق ما ينبغي ان يبرر طرائق الله لدى البشر وذلك بالقيام بعمل عظيم

---

(١) (دفاع عن سميكتيمنس) المؤلفات النثرية المجلد الثالث .

(٢) يقول ملتن في ذلك : « كان مقدراً علي منذ طفولتي ان اخدم الكنيسة وكانت هذه هي رغبة والدي واصدقائي ورغبتي انا نفسي » . (من دواعي وجود الحكومة الكنسية) المؤلفات النثرية المجلد الثاني ولكنه ابتعـــد عن ذلك بالدرجة الاولى بسبب عدم احتماله للضبط الكنسي والحكومة الكنسية).

يتفق ومؤهلاته الفريدة. هذه المؤهلات التي ابانها بشعور الفخر وبلا أي أثر من آثار الانانية. وهذا الشعور وجد تعابير متكررة في نثره كما كان نجمه الهادي الذي كان يسطع بجلاء وبهاء حتى من خلال ضباب السياسة.

لقد كانت له رسالة فكان عليه انجازها. وكان له هدف عليه الوصول اليه، وقد قام بما وجب عليه القيام به بحماسة لا تقل في شيء عن حماسة المتعصبين الدينيين. اما الوسائل التي بها يمكن ادراك هذا المقصد فلم تكن غير تكريس النفس للدين والتعلم ونقاوة الحياة التقشفية. وقد دامت هذه الفترة من العزلة المتمركزة في النفس من سنة ١٦٣٢ الى سنة ١٦٣٨. يحدثنا جيبون باشياء حكيمة ومن بين العديد منها ما يخص كتاب الاوتوبيوغرافيا فيذهب الى ان كل انسان له ثقافتان: ثقافة يستحصلها من معلميه واخرى يكون بها مديناً لنفسه والثقافة الأخيرة هي اكثر اهمية واعم شمولاً.

وفي غضون السنوات الخمس هذه اكمل ملتن ثقافته الثانية مستوعباً بذلك العالم الكلاسيكي [1] بأتمه وهاضماً للعبقرية الكلاسيكية بصورة كاملة حتى غدا الأقدمون بالنسبة اليه كما غدوا بالنسبة الى الشاعر لاندور وهو أمر لم يحز عليه أي شاعر انكليزي بمثل هذه الدرجة. هكذا كان الأقدمون بمثابة نسمة وجوده ولم يقتصر الشأن على ذلك بل تتبعه وتطرق اهتمامه الى الموسيقى والفلك [2]، ودراسة الادب الايطالي. فجمع كل هذه المؤثرات المتنوعة في عدة باهرة لثقافته المنظمة التي نالها بشق النفس. لقد عرف العالم كثيراً من العلماء هم اعظم شأناً من ملتن من الناحية المحدودة ولكن قليلاً من الرجال تمكنوا من السيطرة على ما سيطر عليه في الفن والآداب والعلوم [3] وكل هذه الأشياء تحدثنا باسهاب عن الشاعر وما احتمله خلال هذه المرحلة في الدراسة والتتبع يحدوه في ذلك شعوره الطافح بان كل شيء سيتوج بعمل فريد بارز سيضيف شاهداً آخر الى الايمان بالله الذي يقرر مصائر الناس.

وتمضي هذه الاشياء في حديثها المطنب فتجلب التفاتنا الى الاب الذي عوّد ابنه على اقتفاء اثره في طريق التعلم والدرس. والحق ان ملتن ابدى اكثر من دلالة واحدة على مستقبل شهرته. فتواريخ قصائده المبكرة – (المتفائل) و (المتأمل) و (اركيدس) و (كومس) و (لسيداس) ليست مضبوطة ولعل كل قصيدة نظمت على حدة في هورتون قبل سنة ١٦٣٨. ولأربع من هذه القصائد قيمة شخصية كشرح غير مباشر كتب من مقر عزلة ملتن حول الازمة الخلقية التي مرت بها الحياة الانكليزية والفكر الانكليزي.

وكان هذا كفاحاً بين هيدونية العالم الفروسي غير المبالي وبين تقشف البيوريتانية العميق. ففي المتفائل نجد الشاعر يمسك كفتي الميزان بين الاتجاهين المتضادين ولكن موقفه يصبح جلياً في المتأمل فيعرف إلى أي جانب يكون ميله. اما كومس فهي نبوة سرية عن انهيار حزب العرش في حين ان قصيدة لسيداس تتنبأ بصراحة عن دمار الكنيسة المقررة. والقصيدة الاخيرة هي آخر ما فاهت به عبقرية ملتن الغنائية. وهنا يصل ملتن على حساب كلام مارك باتسن الذروة في الشعر الانكليزي. ولكنه للأسف يتخلى عن مكانته تلك بين عباقرة الغناء التي كان المغني الروماني طموحاً فيها ويترك قيثارته معلقة بصمت في معبد آلهة الموسيقى (ميوز). اما تاريخ نظم لسيداس فيمكن تعيينه بسنة ١٦٣٧. وفي ربيع السنة التالية لتلك السنة سافر ملتن الى ايطاليا. وكان طبيعياً ان يجد في البحث عن الوحي في الارض التي وجد كثير من الشعراء الانكليز مطمحهم فيها من جوسر الى شيلي.

مكث ملتن قرابة خمسة عشر شهراً خارج البلاد. وكان في نيته في الاصل ادخال صقلية واليونان في مجال جولاته ولكن اخبار الاضطرابات في انكلترا عجلت برجوعه. فاضطر ان يجابه وجهاً لوجه مسألة تحمل نصيبه في النضال المقبل او بخلافه وعما اذا كان من الممكن ان يحيا حياة العلم تلك من غير الالتفات الى رضاء الشعب وبغير ان تمسه اهانة شخصية.

لقد عزم كما كان معولاً ان يعزم على شيء ما ولو ان بعض النقاد الصالحين يرى في هذا العزم سبباً للاسف. الا ان ملتن يضع مسألة موقفه وضعاً صريحاً في كتابه (الدفاع الثاني) حيث

---

(١) لقد كان ملتن على اتصال وثيق مع كتاب ما قبل العهد الكلاسيكي من اضراب فيلو والافلاطونيون الجدد ولا ينبغي ان ننسى كذلك عنصر ثقافة القرون الوسطى التي تعود الى تعاليم الربانيين.

(٢) العلم او (الفلسفة الطبيعية) كما يحلو له ان يدعوها، هي احدى فروع الدراسة التي دافع عنها في مقالته (في التربية) وهناك بعض الذكريات عن اهتمامه المبكر بالفلك في (الفردوس المفقود) المقطع الثاني.

(٣) وقصائد ملتن باشاراته الدائمية اكبر دليل على اتساع قراءاته وهناك شاهد اضافي ممتع وهو ما يقدمه لنا في كتاب (كتاب عامة الناس) وقد اكتشفته جمعية (كامدن) في عام ١٨٧٦. ويحتوي هذا الشاهد على مقتطفات من ثمانين كاتباً درس ملتن مؤلفاتهم.

يقول : « ظننت انه من الخزي ان اسافر في سبيل المتعة خارج البلد في الوقت الذي يناضل فيه مواطنو بلدي في سبيل الحرية داخل البلاد » واخيراً يقول : « قررت نبذ كل مسعى آخر من هذه المساعي التي ارتبطت بها محولاً بذلك قوى مواهبي ومثابرتي في اتجاه هذا الهدف المهم الوحيد - اي تزكية الحرية» ولم يكد يقبل صيف ١٦٣٩ حتى وجد ملتن نفسه في انكلترا فكتب مرثيته فور رجوعه وقد دعاها (Epitaphium Damonis) هذه المرثية الجميلة التي ندب فيها موت زميل مدرسته ديوداتي. ولذا فقصيدته لسيداس هي آخر اغانيه بالانكليزية. اما المرثية فينبغي ان تدرس بما لها من اتصال وثيق بلسيداس وهي آخر قصائده اللاتينية الطويلة .

ومن ذلك الحين اناخ عليه الصمت بكلكله وبخاصة فيما له ارتباط بالشعر. فالفترة التي تمثل عنفوان الشباب واوج الرجولة بالنسبة الى جميع الناس والتي تجعل غيره من الشعراء ينتجون خير ما عندهم واميز مؤلفاتهم . هذه الفترة تعد بالنسبة الى ملتن فراغاً مخيفاً، ففي غضون عشرين سنة لم ينظم سوى البعض من الاغنيات تعد على اصابع اليد وحتى ان فيها ما هو ملوث بصبغة العداء السياسي . وسبب ذلك هو مشاغل اخرى دعته فلبى دعوتها ولم يكن اقلها مسائل الاصلاح الكنسي والتربية والزواج وقبل كل شيء آخر السياسة .

اما اول مقالة لملتن بشأن الحكومة الكنسية فقد دعاها (في سبيل الاصلاح في انكلترا) وقد نشرت سنة ١٦٤١. وقد تبعها العديد من البحوث بسرعة. وكان الغاء الاسقفية هو شعار اعداء الكنيسة الانكليزية وهو ما تعلق به دعاة البيوريتانية ولم يثبت هذه القضية ببلاغة كما ثبتها ملتن . ففي خلال سنة ١٦٤١ - ١٦٤٢ كتب ملتن خمس كراسات في الموضوع . وفي الوقت نفسه شغل نفسه في دراسة مبادىء التربية . وحال اوبته اضطلع بمهمة تدريب ابناء اخوته. وقد قاده هذا الى تفهم احسن الوسائل التربوية. وفي مقالته (بحث في التربية) وقد نشرت سنة ١٦٤٤ ، ما يشير الى اتخاذه موقف المفكر التربوي .

وفي السنة السالفة لتلك تزوج ملتن غير ان زواجه خاب خيبة مرة [1] فكانت نتيجة ذلك تلك الكراسات التي كتبها

(١) اما زوجته (التي لم تكد تبلغ السابعة عشرة) فكانت تدعى ماري باول وهي ابنة ريشارد الكبرى وهو من مواطني فورست هل وهي قرية على مقربة من اوكسفورد . غير انها اسرعت في الفرار منه والالتجاء الى ابيها

الاديب



★

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدماً وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيه ونصف او ٦ دولارات ونصف

في الولايات المتحدة ١٠ دولارات ، في الارجنتين ١٠٠ ريال

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ١٢٠ ليرة كحد اعلى

في الخارج : ١٤ جنيهاً او ٦٠ دولاراً كحد اعلى

★

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

★

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية

تليفون : الادارة ٢٣٨١٩ المنزل ٢٥١٣٩

Tél. : Direc : 23819 Dcle. : 25139

★

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : **ألبير أديب**

سكرتير تحرير مكتب القاهرة : **محمد يوسف نجم**

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب – صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت – لبنان

بشأن الطلاق . ومن هذا يتضح انه لم يكن له ما يستمتع به في الادب الصرف . واجمل مؤلفات ملتن النثرية هي كتابه (في الدفاع عن الحرية) وهو دعوة للدفاع عن حرية التعبير وقد طبع سنة ١٦٤٤ . وفي سنة ١٦٤٥ نشرت اول مجموعة لاشعاره . وفي سنة ١٦٤٩ اقر بمنزلته الرفيعة في الدفاع عن قضية مناهضة الملكية فعين في وظيفة مرموقة في مجلس الدولة الذي تم تنظيمه يومئذ وقد برر محاكمة شارلس الاول تبريراً فيه الشجاعة كلها والبطولة كلها . وكتابه (اقطاع الملوك) خير شاهد على ذلك وقد نشر هذا الكتاب في السنة نفسها وقد قبل بالمنصب الذي اسند اليه وهو امانة السر اللاتينية [1] للجنة الشؤون الخارجية . ولم يكن ثمة غبار على سلوكه في وظيفته وفي اداء واجباته وكان عمله يوجز في كتابة الرسائل الى الدول الأجنبية وترجمة البيانات الرسمية والقيام بالترجمة للسفراء الاجانب .

وانا أظن ان عمله لو توقف على قبوله لهذا المنصب لكان ذلك وحده كفيلًا لأثبات انتصار عز نظيره . غير ان منصبه هذا جعله على اتصال مع صفوة الرجال في الدولة بالاضافة الى تحصيله على بعد نظر عملي في ادارة الشؤون الوطنية ودوافع الجهاد الانساني، او بكلمة أخرى ان هذا المنصب زوده بتجربة الحياة وهي ضرورية للشعراء الطامحين في ان يكونوا شيئاً اكثر (من مجرد مغنين في الايام الفارغة). ومن سوء الطالع ان وظيفة امانة السر كانت تعني وجوب الدفاع عن سير الثورة الماضي في كل انعطافاتها وسياسة المجلس الحاضرة . وفي الحقيقة دافع ملتن عن حزبه دفاعاً مستمراً . وهذا الذي جعله ينحرف في المجادلات غير النافعة التي لا نهاية لها،هذه المجادلات التي أضاعت عليه اثمن سني حياته والتي غطت طبيعته كما يظن بعض النقاد وكلفته في النهاية فقدان بصره .

انتج ملتن ما بين ١٦٤٩ و ١٦٦٠ لا أقل من احدى عشرة كراسة والبعض من هذه الكراسات كان نتيجة لنشر كتاب (الايقونة الملوكية) المشهور . وقد طبع الكتاب سنة ١٦٤٩ فكون شعوراً قوياً الى درجة ان ملتن طلب اليه الرد عليه وهذا ما فعله بكتابه (محطم الايقونات) . وهذا النوع من المناقشات فيه عيب ضمني هو انه متى ما بدأ عز عليه الانتهاء . وقد أعد الملكيون استاذ جامعة ليدن سالاماسيوس لاعداد رد بعنوان (دفاع ملوكي) فما كان من ملتن الا ان واجهه بكتاب آخر هو (في سبيل الدفاع عن الشعب البريطاني) سنة ١٦٥١ وفي تحضيره لهذا الكتاب فقد آخر ما تبقى له من قوة البصر [1] فرد عليه سالاماسيوس ولم يعش ليرى انتشار زوبعة سفاهاته مما اضطر ملتن الى الاجابة فكان (دفاعه الثاني) وقد نشر سنة ١٦٥٤ .

ولم ينل أحد من المحاربين شيئاً بنتيجة هذا الخلاف. في حين ان تطور الجدل الذي اعقب هذا الامر والذي تمكن فيه ملتن من هزم الاستاذ مورس راعي كنيسة امستردام . أقول ان هذا التطور يثبت ما ذهب اليه مارك باتيسن من ان اليوم الذي ترك فيه الشاعر دراسته في هورتون هو يوم مشؤوم مع ان الشاعر لم يقم بذلك الا في سبيل الدفاع عن الوطن وسط نباح السوقة (فلبس هنا يا ابولو ما هو لائق بك) ومن حسن الحظ ان هذه الفترة في حياة ملتن لم تمتد طويلًا . لان الملكية عادت فانتصرت وكان هذا نعمة مقنعة له . ثم ان سنة ١٦٦٠ جلبت معها دمار حزب ملتن السياسي وبددت آماله الشخصية وطوحت قضيته التي ناضل دونها مدى عشرين عاماً وهكذا غدا حراً طليقاً .

ومرة أخرى اصبح في امكان مؤلف لسيداس ان يكون شاعراً . لقد كتب شيئاً كثيراً عن المرحلة الثانية ١٦٣٩ —

في تموز ١٦٤٣ ورفضت الرجوع الى ملتن . وسبب ذلك غير واضح . ثم انها عادت فتصالحت مع زوجها سنة ١٦٤٥ . وولدت له اربعة اولاد . وتوفيت سنة ١٦٥٢ في سنتها السابعة والعشرين. ولا شك في ان المشهد العاشر من (الفردوس المفقود) ذلك المشهد الذي تطلب فيه حواء غفران آدم وهو ما يشير الى تجارب الشاعر الشخصية . بينا ان مقاطع عدة في (سامسون اغنوستيس) لا بد كانت من وحي السبب نفسه .

(١) كانت الحالة تتطلب امين سر في اللاتينية لان المجلس استنكف كما يقول ادوارد فيلبس « ان ينجز شؤونه بالرطانة الفرنسية المداهنة المتذللة». وكان راتب ملتن السنوي قرابة ٩٠٠ جنيه في حساب عملتنا .

(١) ولعل هذا اشد اقسام المأساة ايلاماً . يقول ملتن في (الدفاع الثاني) بان بصره اصابه الاذى بسبب دراسته التي تجاوزت الحد في ايام صباه (كنت من الثانية عشرة قلما أترك غرفة الدرس واذهب الى الفراش قبل منتصف الليل) . فالقراءة المستديمة والكتابة زادت في ضعفه . ولم تقبل سنة ١٦٥٠ حتى كان فقد بصر عينه اليسرى . . وقد انذر بعدم استخدام عينه الأخرى في القراءة. ومن سوء الحظ كان الوطن في امس الحاجة اليه في هذا الوقت بعينه . واذا كان في الوسع الا يكتب ملتن (دفاعه) الاول لاصبح من الجائز ان يحتفظ ببصر جزئي على الاقل لمدة وجيزة اخرى .

فكان الخيار بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة فاراد الاخيرة وهذا ما كان له .

١٦٦٠ . فرأينا ما لقيه ملتن أثر عودته من ايطاليا . فهل كان اختياره مصيباً ؟ وهل كان عليه المضي في طريق الثقافة الرخية الهانئة ؟ ومن الناس من يجادل في هذا فيقول ان ملتن ارتكب خطأ وفي رأيهم ان الشاعر ينبغي له الابتعاد عن النضال السياسي لان المناقشة الحامية لا تفيد أي شخص فالذي يمس القار لا بد له ان يتلوث به . لقد كرس ملتن عشرين سنة من احسن سني حياته للقيام بعمل في وسع أي صبي القيام به ولم يكن هذا ليستحق هذا العناء كله وهذا التعب والنصب . فكان في المقدور ان يؤتى بكومس أخرى، ثم بأخرى ارفع شأناً من لسيداس ذلك بان الادب ما زال مفتقراً الى هذه المؤلفات الجليلة التي كان من المحتمل الاتيان بها .

وان أعظم ثاني عبقريتين انتجتها انكلترا ينبغي ان نعدها وريثة شهرة غير كاملة ، وهذا ما يحزن عليه أشد الحزن وما نفتقده اكبر الافتقاد . وثمة جانب آخر من المسألة فمن الصواب الافتراض ان الفردوس المفقود و (سامسون اغنوستيس) لم يكن لهما مجال الظهور والبروز لو ان ملتن اختار حياة العلماء وعزف عن اعمال الناس . فمعرفة الحياة والطبيعة البشرية والتعرف على مشاكل عواطف الناس ودوافعهم وادراك نتائج المأساة الانسانية ادراكاً واسعاً كل هذه الاشياء ضرورية لمؤلف قصائد الملاحم وليس يمكن الحصول عليها الا من خلال الاتصال بالعالم اتصالاً مباشراً والا فأن القابع في صومعته لا يمكنه التوصل اليها في أي حال من الاحوال .

يتشكى درايدن من ان ملتن رأى الناس من خلال الكتب وفي مقدورنا تطبيق الكلام نفسه على درايدن . ومن حسن الطالع ان الامر ليس كذلك لان ملتن وضع مصيره في مصير وطنه فهو يشبه ذلك الغواص الذي يتحدث شلر عنه في قصيدته (الأغنية) متخذاً بذلك طريقاً كانه تكليفاً باهظاً. فرجال القلم لن يحركوا العالم مطلقاً بأقلامهم حسب . فاخيلوس حارب في مراثون وشكسبير كان عملياً الى قمة رأسه ولم يكن يؤكد هذا الوجه من المسألة فيقول ان الانسان (الذي لا يريد ان يخيب مسعاه بأمل كتابة ما هو لائق وممدوح ينبغي له ان يكون هو نفسه قصيدة حقيقية أي ان يكون لحناً مؤتلفاً من خيرة الأشياء وارفعها من غير ان يزعم غناء المدائح الرفيعة بشأن ابطال البشرية الا اذا كان حائزاً على تجربة وممارسة لكل ما هو اهل للثناء والسمو) .[١]

ومرة اخرى نرى في تخمينه للمؤهلات التي يتطلبها ناظم الملحمة أنه لا يغفل عن تضمين (الادراك في كل ما هو جميل ونبيل من الفنون الرفيعة والشؤون العامة)[٢] . والحقيقة تكمن وسط الطرفين المتناقضين ولعلها تعمل مثل هذا الشيء هنا . ولا ريب في ان ملتن افاد كثيراً من تنفسه في هذا الجو الواسع من الحياة العامة على ما كان يعلق به من دنس . ولا شك كذلك في ان كفاح عشرين حولاً لا بد وانه خلف أثراً حتى في ذهن ملتن. وفي احدى المواضع القليلة جداً حيث يتطرق شكسبير الى قضيتنا يكتب قائلاً :

« اواه لاجلي اتفقت أنت والقدر لتعزز الآلهة الآثمة :آلهة اعمالي المؤذية .

التي لم تزود حياتي خيراً — من تلك الوسائل العامة — التي ترعرعت بين احضان العادات السائدة .

ومن هنا علقت لطخة عار باسمي — ومن هنا ايضاً خضعت جبلتي الى ما تقوم به من عمل .

خضوع يد الصباغ لمهنته » .

وقد خضعت عبقرية ملتن لهذا الأثر خضوعاً بارزاً . واذا نحن قابلنا ملتن صاحب الملاحم الكبرى ومؤلف (سامسون اغنوستيس) بشكسبير او هومر — لان العظماء وحدهم يمكن ان يكونوا أهلاً للموازنة به — فسنجد حتماً ان ملتن تعوزه الانسانية مع مس من ضيق التفكير وافتقار الى (حرارة الدموع) . هذه الرقة التي يجدها الناس ذوو الابصار السليمة حتى في (ترويلس وكريسدا) او (تيمون الاثيني) . فملتن يعكس بعض الشيء ميزات البيوريتانية الأقل لطفاً، أي تعصبها وافتقارها الى المزاح وعنفها ذو الوجه الواحد . وطبيعي ان نعزو هذا الضيق — لدرجة كبيرة — الى كونها ثمرة ما قدمه مدى عشرين سنة بغير انقطاع في خدمة النضال والنزاع المستديمين . وتعاسة حياته الحقيقية تكمن في واقع ايامه الذي كان واقعاً شريراً لم يكن فيه مكان آمن للناس المعتدلين .

فكان عليه الخيار بين طريقين فاما ان يكون مجادلاً مناقشاً واما ان يكون تلميذاً لانتفاء وجود طريق وسط . ولعله اختار احسن السبيلين وأقربهم الى الحق غير انه يودنا لو كانت الاحوال

---

(١) دفاع عن سمكتيمنس المؤلفات النثرية الجزء الثالث .

(٢) من دواعي الحكم الكنسي . المؤلفات النثرية الجزء الثاني .

التي اجبرته على الخيار بتأثيرها مختلفة الاختلاف كله . لقد كان عظيما جليلا في نبل حياته وفي نقاوة دوافعه وفي تضحيته الذاتية التي لا تقهر في سبيل مثله العليا لدرجة تجعلنا نرغب حتى في عدم الظهور بمظهر المحكمين (على ما ورثناه من تراثه) .

اما الجزء الاخير من حياة ملتن فقدجرى هادئاًرخياً . ففي سن الثانية والخمسين القى بين احضان الشعر مرة اخرى فغدافي وسعه انجاز ما فرضه على نفسه من رسالة . لانه لم يعد مطلقاً قصائده المبكرة ايفاء للدين الذي كان ملزماً به لخالقه . ولم ينس ملتن الهدف الذي ملأ شغاف قلبه في ايام صباه حتى في نار النضال السياسي وفي أشد حالاته التهاباً . ولم يكن هذا الهدف غير انجاز (الفردوس المفقود) . شرع ملتن في نظم القصيدة قرابة سنة ١٦٥٨ وانتهى منها في سنة ١٦٦٣ وهي سنة زواجه الثالث[1] ونقحها من سنة ١٦٦٣ الى سنة ١٦٦٥ ونشرها في النهاية سنة ١٦٦٧ وقبل طبعها في خريف ١٦٦٥ شرع في نظم خاتمتها (الفردوس المعاد) وقد اعقبها بعدئذ بـ (سامسون اغونوستيس اما اتمام (الفردوس المعاد) فيعزى الى سنة ١٦٦٦ وسامسون اغونوستيس الى سنة ١٦٦٧ . وقد امضى ملتن بعض الوقت في تنقيحها جميعاً . وفي شباط ١٦٧١ طبعت معاً في مجلد واحد . وفي سنة ١٦٧٣ اعاد ملتن طبع اشعاره وقد سبق له ان قام بذلك سنة ١٦٤٥ مضيفاً اليها معظم الاغاني[2] التي نظمت في الفترة هذه[1] .

اما السنوات الاربع الأخيرة من حياته فقد كرست في سبيل المؤلفات النثرية التي لا تهمنا كبير اهتمام[2] . واصل ملتن حياته في لندن وقد اثبت زواجه الثالث نجاحه واستمتع بشهرته بعض الشيء هذه الشهرة التي كانت اهلاً له . وقد اعتاد كثير من الرجال البارزين زيارته وعلى الأخص درايدن[3] الذي طلب في احدى زياراته السماح له بجعل « الفردوس المفقود »[4] تمثيلية وقد اجابه ملتن على طلبه .

قضى ملتن نحبه في الثامن من تشرين الثاني سنة ١٦٧٤ ودفن في كنيسة القديس جلز في كرباكيت . واذا ما نحن فكرنا فيه فينبغي علينا ان نفكر في انسان عاش حياة فريدة في غاية النقاوة والولاء لواجبه . انسان ضحى هذه التضحية كلها في سبيل ما تصوره خير بلاده ، تضحية ليس لاحد ان يقدرها حق قدرها ، تضحية دامت عشرين حولاً في سبيل انجاز هدفه المقرب الى قلبه والملائم لعبقريته . غير انه مع ذلك حقق رغبته في النهاية فنظم قصيدته الفخمة (في تمجيد الله) .

بعقوبة - العراق يوسف عبد المسيح ثروة

(١) جرى زواج ملتن الثاني في خريف ١٦٥٦ وقد قال في احدى الاغنيات بهذا الشأن (يبدو لي كاني رأيت قديستي المخطوبة) وعواطفه تلك تبلغ الذروة بسبب عدم رؤياه لها .

(٢) يبلغ عدد اغاني ملتن ثلاثا وعشرين واذا استثنينا قطعته (مصفدو الضمير) . وخمس من هذه الاغاني كتبت بالايطالية ولعل ذلك جرى خلال وقت جولاته في ايطاليا بين سنتي ١٦٣٨ و ١٦٣٩ وطبعت عشر من الاغاني في طبعة سنة ١٦٤٥ وآخرها تلك الموسومة (الى السيدة مارغريت لي) (من مخطوطة كيمبردج) ، اما الثلاث عشرة الباقية فقد نظمت بين ١٦٤٥ و ١٦٥٨ . ولذا فخاتمة الاغاني (في ذكرى زواج ملتن الثانية) سبقت مباشرة شروعه في (الفردوس المفقود) . واربع من هذه القصائد (١٥ و ١٦ و ١٧ و ٢٢) لم تضمن في طبعة سنة ١٦٧٣ لنغمتها السياسية الخاصة . ولكنها نشرت من قبل ادوارد فيلبس مع ذكرى ملتن سنة ١٦٩٤ « اما الاغنية الثامنة عشرة فقد ظهرت سابقاً في كتاب (حياة ملتن ، لفين) وتعد قصيدة (مذبحة في بدمونت) على وجه عام احسن ما في المجموعة . وقد نشر منها مارك باتيسن طبعة مشهورة سنة ١٨٨٣ . اما قصيدته المنقوشة بجوهرة على شباك في مسكن في جالفونت حيث عاش ملتن سنة ١٦٢٥ فهي ملتونية ان لم تكن بقلم ملتن ، (غارنيت - حياة ملتن ص ١٧٥) و (هذا ما ذهب اليه ناقد ممتاز) .

(١) وطبعة سنة ١٦٧٣ تقدم قطعتي (حول وفاة طفل جميل) و (رياضة نزهة) غير انها حذفتا لسبب ما من طبعة سنة ١٦٤٥ .

(٢) اما مقالته (التعليم المسيحي) « ولم تنشر خلال حياة ملتن ويظن انها مؤرخة من مرحلة مقالاته اللاهوتية » وهي ثمينة من جهة ما تلقيه من ضوء كثير على وجهات النظر اللاهوتية . وقد عبر عنها في ملحمته وفي سامسون اغونوستيس . انظر (محاضرات في ذكرى ملتن ص ١٠٩ - ١٤٢ سنة ١٩٠٨) . واكتشاف مخطوطة هذه المقالة في سنة ١٨٢٣ اعطى فرصة لماكولي لكتابة مقالته الشهيرة عن ملتن . ومن حسن الحظ انها وصفت كرد حر على هجاء جونسون المحافظ للشاعر . وتاريخ بريطانية لملتن ولو انه لم ينشر حتى سنة ١٦٧٠ غير انه كتب قبل عدة سنين من ذلك واربعة من هذه الكتب الستة كما نعرف كتبت بين سنة ١٦٤٦ و ١٦٤٩ .

(٣) ان الابيات التي كتبت من قبل درايدن تحت صورة ملتن في طبعة طونسون للفردوس المفقود والتي نشرت سنة ١٦٨٨ معروفة ولا تحتاج الى ذكر ، ولكن مما هو جدير بالذكر هو كون الشاعر الشاب وصف في حياة ملتن الملحمة العظيمة (على انها انبل وارقى الاشعار التي انتجها هذا العصر او هذه الامة) . (من مقال حول حالة البراءة) سنة ١٦٧٤ . أضف الى ذلك فان التقاليد تعزو الى درايدن (وهو كاثوليكي وملكي) قوله ان هذا الشخص يقطعنا جميعاً كما يقطع القدامى) .

(٤) انظر كتاب مارفيل (أشعار المديح) ١٧ - ٣٠ والملاحظات ص ٧٢ و ٨٣ .

غرفة الشاعر

*

في وحدة خرساء ، طافحة بألوان الحنين
أحيا هنا ، في غرفتي ، أحيا كما يحيا السجين
في عزلة المترهبنين ، البـــاحثين عن اليقين
في حجرة بكماء ، رمداء المنافذ والعيون
لا الشمس تجرؤ أن تمرّ بها ، ولا الفجر المبين
لا ظل غيري في الدجى ، لا همس يزدرد السكون
حيطانهـــا متساندات ، كاليتامى ، الجائعين
وبقربهـــا « ليمونة » مثلي تعيش ، بلا قرين
عطفت عليّ ، أنا الوحيد ، فأرسلت بعض الغصون
ودعت عصافير الصباح ، فرددت نغماً ، حزين
ليمونتي ، فلأنت أكرم من بني الطين اللعين
أنا هنا ، أنا أزال هنـــا ، على السفح المهين
وهزيمتي ، واليأس يطرح ظـله فوق الجبين
أحيا ، وآمالي الكبار ، تنام مطبقة الجفون
مطروحة بغبارها ، مثلي ، يمزقهـــا الأنين
عادت وعدت من الكفاح ، معفّراً بثرى السنين
متحدرين ، كزاعين ، تواثبا خلف الظنون
أنا هنا ، وصحائفي السوداء ، والقـلم الأمين
أملي عليه ، فكم يترجم ما أحس ، الى لحون
يا حجرتي إما مضيت ، وسرت في ركب المنون
وطُويتُ ظلاً قد تقلّص في الضحى هل تذكرين
فلربمـــا قد تحزنين ، وربمـــا قد تسخرين

القاهرة — كيلاني حسن سند

المرأة والليل

مهداة الى الصديق سعيد حورانية

بقلم محمد احمد رمضان

أنا الآن أسير.. وعلى كتفي مصابيح خافتة ترتعش ذبالتها تحت رياح ليل الشتاء، ومن فوقها تتعاقد بنايات مظلمة هامدة كجثث المومياء، والشارع المقفر اللامع قد ترامى بصدره الرحب الى الأفق، وساعة من بعيد تدق الثانية عشرة.

هذا تماماً ما قلته لنفسي وانا ذاهب الى منزلي، وطرقات حذائي المنتظمة تتساقط رتيبة على أذني كدقات ساعة الحائط. ولم يكن في نفسي شيء ابداً، فقد شاهدت أحد الافلام ولبثت ساعتين صامتاً مستسلماً لها كالابن المطيع، ثم خرجت وبي من صفاء النفس ما بسحابة تسير بلا جهد وتسعى بلا قصد.

الشارع مظلم الا من احد «الأكشاك» المضيئة. ورأيت فيه شعراً طويلاً قد غرق في ضباب من دخان لفافة تبغ. إمرأة، ووحيدة ايضاً. ولهذا شعرت بشهوة شيطانية تملأ مجاري دمائي كما لو كنا معاً في خلوة في غرفة. غرفة واسعة جداً بلا سقف، هي هذا الشارع المقفر.

وأخذت خطواتي تقترب تدريجياً من «الكشك» الخشبي الذي يعرض فيه اللحم بدلاً من اوراق اليانصيب، وإذا بصوت رقيق متكلف يسألني — كم الساعة من فضلك؟

كنت اتوقع ان امتلىء مللاً من هذا السؤال الساذج الذي سمعته عشرات المرات، إلا انه من الغريب انني لم أحس بشيء لعلها الوحدة، والليل، ونحن معاً، من يدري؟ غير ان ما ادريه هو انني نظرت الى ساعتي.

— الثانية عشرة وخمس دقائق. انها ساعة متأخرة من الليل، ولعله من الغريب حقاً أنك لم تجدي «صديقاً» حتى الآن.

نظرت اليها وكانت اسنانها مضيئة، ولكنها لم تكن ابتسامة على أي حال، وهزت كتفيها في دلال عتيق وقالت:

— لقد واعدني اثنان ان يأتيا في الساعة الحادية عشرة ليأخذاني ولكنهما لم يأتيا. لعلهما وجدا فتاة اجمل مني. هه.

ونفثت سحابة من الدخان في قلة اكترات ولكن اجفانها كانت تضم شيئاً غير قليل من الاسى، فقد كانت تخشى ان يكون جمالها قد بدأت تنال منه الأيام السوداء.

قلت محدقاً في عينيها وما حولها في إعتداد برجولتي.

— كم تتناولين لقاء الليلة الواحدة؟

وهنا عادت الى ابتسامتها الخجولة التي هي كل ما يربطها بالمجتمع المهذب، ونقرت بأصابعها على الرف الخشبي وهي مطرقة الرأس.

— كما تحب، نصف جنيه مثلاً؟

ورأيتها ترنو إلي من تحت غدائر شعرها واصابع وجهها في تحفز وحشي، فلم أطق نظرتها وقلت.

— لقد أسأت فهمي، هناك أناس غريبو الأطوار لا هواية لهم الا ان يتألموا حين يرونك على هذه الحال، ربما كانوا حمقى ولكنهم مع هذا لا يملكون فعل شيء. يا عزيزتي الصغيرة إليك نصف الجنيه، فاذهبي واستريحي هذه الليلة على الأقل، يكفيك انتظاراً.

فملأت الدهشة كل وجهها دفعة واحدة، وحين تدلى لسانها في بلاهة أدركت كم كانت نشأتها وضيعة، فبدأت خطواتي تسير وهنا سمعتها تهب من مكانها.

— إسمع، لماذا، ولكن، انتظر: هل لك ان توصلني الى منزلي، أرجوك..»

وبينما كنت اقول «بكل سرور» كانت قد انتهت من اقفال ازرار مئزرها الابيض، وشرعت في اقفال (وكرها) الخشبي. سرنا..

كانت السماء مطبقة الصمت وكان الشارع الرمادي كذلك، اما انا فكنت في موقف عجيب: فقد كنت اشعر بالاحترام والرثاء لهذه المرأة، وكنت في الوقت نفسه اخشى ان يراني احد سائراً معها، فجأة سألتني وقد سقط عن وجهها كل الأقنعة التي تحملها النساء في الليل فبدت اشبه بالأرملة.

— ما دعاك الى فعل ما فعلت؟

— لا أدري تماماً، هناك دوافع قدرة بجانب العوامل الطيبة، وكلها دفعتني الى ان امثل دور المنقذ، انت لا تدرين كم ارفع من مرتبة مثيلاتك. إنهن يبذلن كرامتهن اكثر من أي مخلوق آخر في الوجود كي يجدن لقمة العيش بعد أن سدت جميع الطرق في وجوههن. فأطلقت ضحكة رقيقة ساخرة أذهلتني

— يا حبيبي، إنك تبالغ كثيراً، أتريد الحق؟ نحن بهائم نستحق كل ما لقيناه، لا تندهش فلم يرغمنا أحد على ان نبذل كرامتنا اكثر من أي مخلوق آخر في الوجود، خذ مثلاً، لقد كنت بين والدة مستقيمة ووالد عادي الطباع، ولكنني أصررت على تطبيق السينما على حياتي، فكان أن ارغمت زميلاتي



على ان ينادينني «بكاميليا» ثم وقعت في مغامرة صبيانية أضاعت علي الحصول على شهادة الثقافة ، وكان طرفها الآخر طالب جامعي من ابناء الجيران ، كان كلانا يخدع الآخر ، ويحاول إقناعه بأنه يحبه ، بينما لم يكن هناك غير البحث عن تجربة محرمة لذيذة ، وكانت المرة الوحيدة التي خيل إلي أنني احبه حباً جارفاً هي ساعة ان اعترف بها – كاذباً – بحبه ، ولهذا ارتميت على صدره وأنا اشده من قميصه ، ثم اختفى عنا كل ما حولنا .

– هذه حالتك ، ولكن لا تنسي الفقر ، ان زميلاتك لا يسهرن الليل ويصبرن على قبلات الشيوخ والأنفاس النتنة الا لكي يمنعهن اخوتهن الصغار وامهاتهن العاجزات من استجداء الناس في الطريق .

فما زادت على ان صاحت في غيظ مستحب :

– كفى يا أخانا ، هناك ملايين من الفتيات الفقيرات يقضين حياتهن قانعات ، وقليل منهن من لا يجدن غير طريق الليل كي يعشن عيشة الكفاف ، ومن بين هاته الفتيات من يفعلن هذا كي يعلن عائلاتهن ، فهل فكرت بمن يدفعهن الى الرذيلة ؟ انها هذه العائلة القذرة التي تترفع عن التسول ، وهي تسمح لها ان تتأخر حتى الساعة الواحدة صباحاً ببساطة متناهية متى اقتضتها ضرورات عملها المزعوم في إحدى الشركات التجارية الى هذا ، كما لو كانت الشركات تفتح ابوابها عادة حتى الساعة الواحدة صباحاً . !»

قلت لها متحمساً : – إنك ذكية يا عزيزتي .

– لست ذكية ابداً . بل لست شيئاً على الاطلاق ،وكل ما في الامر انني افهم هذه المسائل فهما تاماً ، وفيما عداها فلا أفقه شيئاً ، وألا لما ..

ومضت تثرثر وانا انظر الى الاضواء الخافتة البعيدة في وجوم ثم انتبهت الى حديثها فجأة ، فسمعتها تكمله في لهجة خشنة ووقع حذائها المنتظم يحيل كلماتها الى مقاطع موزونة .

– امر الرجال ، اننا مخلوقات تافهات فلماذا يجعلوننا في القصص قديسات شهيدات .؟ الأننا نرضيهم بأجسادنا فيودون مكافأتنا بهذا الأحترام .؟

ثم التفتت الي ساخرة ساخطة .

– دنيا .! اتصدق انني سمعت احدهم ـ وهو شاعر معروف ـ يقول لي بعد ان فرغ من اداء مهمته معي بأنه يحترم من كن مثلي . فنظرت اليه نظرة لا تدل على انني ابادله هذا الاحترام وكان بودي لو صفعته ، إبن الكلب وذيد .. » ثم عضت على شفتيها في حنق وسكتت .

نظرت اليها وابتسمت ؛ كانت قد اشرفت على الثلاثين ، ولكن جمالها لم يكن قد ذهب كله ، وفكرت في حماس ان اتزوجها ، ولكنها كانت مجرد فكرة ، ذلك انني كنت اعلم ان المرء قلما يرى عاهرة مرتين ، ولوافترضت انني أويتها في منزلي فسأظل اسأل نفسي كل يوم اصعد فيه سلالم المنزل : « ترى هل تنتظرني رسالة وداع على المنضدة ، ام قضية سرقة » ؟ ان هؤلاء النسوة اشبه بملكات ليوم واحد ، وهن ينتقلن كل يوم من مملكة الى اخرى ، ومتى انتهى طوافهن حول العالم انتهت حياتهن .

وساءلت نفسي فجأة : ترى كيف تنتهي هـذه الليلة ؟ ثم نظرت اليها باسماً – كنت افكر في الزواج منك . يا لها من فكرة جنونية . !

فهزت رأسها في اسى واخذت تنقر بأصابعها على ابواب المتاجر المقفلة ، وران علينا صمت .

وفي نهاية الشارع كان رجل يصفر بفمه صفيراً متقطعاً ، ولعله كان خائفاً او مخموراً ، وبعد لحظات اشرت الى مسكن دون ان اتوقف قائلًا لها : « ها هو منزلي » فكفت عن السير فجأة ومدت ذراعها كلها لمصافحتي كامرأة من الريف ، فقلت في حدة :

– سأوصلك الى منزلك كما وعدتك .

فقالت وكأنها تسخر من نفسها : لا ، شكراً ، لا داعي لكل هذا العناء فمنزلي قريب من هنا ولم يبق عندي شيء اخشى عليه .

فأصررت على الوفاء بوعدي ، ولكنها ألحت ، وكان الحاحها غريباً فودعتهـــا وانشأت ارتقي درجات منزلي ، وحين دخلت غرفتي نظرت من النافذة ، فرأيت الرجـل ينظر الى ساعته بعين ويحدق في الواقفة امامه بعين اخرى ، ثم اختفيا في احد الأزقة .

أقفلت النافذة والهواء البارد يتخلل جسمي كله ، وسمعت ضحكاتها من بعيد ولكنني لم افقه شيئاً من هذا كله ، كان يجدر بي ان افهم انها يتندران عليّ ، ولكنني وحدي كنت اعلم ان وراء الأمر مأساة ، وتخيلتها تقول لي وقد خلاصوتها المستسلم من الالم : «لا استطيع ، يجب ان اعود ملكة اخرى هذه الليلة ، ودون مقابل . »

وأنظر اليها في حنان . وأحس ان ما في صدري تحتاجه الانسانية كلها .

القاهرة — محمد احمد رمضان

في طريق الميثولوجيا عند العرب

بقلم محمود الحوت

استاذ في العلوم

✱

الباب الثامن

صدى المعتقدات والاساطير في الشعر

الفصل الثاني : نصيب هذه المعتقدات والأساطير من هذا الشعر

بعد هذا التحفظ الذي نبسطه امام القارىء ، والحذر مما وصل الى ايدينا من الشعر الجاهلي ، وما قيل انه شعر جاهلي ، نحاول ان نتصدى لما تردد صداه من المعتقدات والاساطير والخرافات في هذه الاشعار . وانه لجدير بالذكر ان الكثير من الاشعار المصنوعة نفسها ، انما يدل — كثيراً او قليلاً — على صور من حياة العصر الذي عاش فيه محمد ، او العصر الذي سبق ايام النبوة . ولا شك في ان البعض من الرواة وغيرهم ممن وضعوا مثل هذه الاشعار ، قد كانوا على معرفة تامة بعصور ما قبل الاسلام . ولا ينكر احد ان منهم من كان ذا نباهة وحذاقة ولباقة مكنته من اجادة التقليد حتى اعجز المتضلعين في علم اللغة والعروض عن تميز اشعاره المصنوعة من الاشعار الاصلية !

ولا بد لنا من الاشارة احيانا الى وضوح عملية الصنعة في بعض الابيات التي سنثبتها في هذا الفصل ، او امكانية هذه الصنعة من وجوه شتى .

ولعلنا لا نأتي بجديد حينما نذكر ان هذه الاشعار نفسها انما اخترعت في زمن متقدم ، فذكرتها اقدم التواريخ ، كالسيرة لابن اسحاق ، وتاريخ الطبري ، ومروج الذهب ، والعقد ، والاغاني ، وكلها لم يتجاوز القرن الرابع للهجرة ، وقد توفي ابن اسحاق في منتصف القرن الثاني .

ومن المجدي ، وقد يطول بنا هذا الفصل ، ان نقسمه الى ثلاثة اقسام : ١) الاصنام والانصاب ٢) تاريخ واساطير ٣) غيلان وجن .

القسم الاول : الأصنام والأنصاب

أ ـ انكارها

والشعراء مع الآلهة العربية القديمة فريقان : فريق يؤيدها ويحنو عليها ، ويتمسك بها ويذود عنها . وفريق ينكرها ويناديء بحربها ، ويأمر بالنكول عن عبادتها وبهدمها وتحريقها .

ويلاحظ ان أنصار الفريق الثاني اكثر عدداً ، واشعارهم اوفر واوسع انتشاراً ، ولا سبيل هنا الى ترديد الأسباب ، وقد عرضنا لها في ظروف كثيرة ، فلا غرابة ، إذاً ، بأن تنقص اشعار الفريق الاول بينما تأخذ اشعار الفريق الثاني بالازدياد .

ولقد ذكرنا سابقاً ان المسلمين لم يكونوا وحدهم الذين انكروا الاوثان وعبادتها ، بل كان هنالك افراد من الوثنيين انفسهم لم يستسيغوا هذه العبادة ، بالاضافة الى المتحنفين واصحاب الكتاب من يهود ونصارى . ولكل شعراؤه ، قال ابن سلام : « وكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ، ويتعفف في شعره ، ولا يستبهر بالفواحش ، ولا يتهكم في الهجاء » [١] وقال ابن الكلبي ذاكراً زيد بن عمرو بن نفيل : « وكان قد تأله في الجاهلية وترك عبادتها (يعني العزى) وعبادة غيرها من الاصنام » [٢] وزيد هذا هو الذي ينسبون اليه :

أرباً واحداً ام الف رب	ادين اذا تقسمت الامور
عزلت اللات والعزى جميعاً	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى ادين ولا ابنتيها	ولا صنمي بني عمرو ازور
ولا غنا ادين وكان رباً	لنا في الدهر إذ حلمي صغير (٣)

---

(١) طبقات الشعراء للجمحي ـ ليدن ١٩١٣ ص : ١٤

(٢) كتاب الأصنام : ص ٢١ (٣) السيرة : ص ١٤٥

واسمع رنة حسان وهو يدافع بلسانه (وليس غيره) عن دعوة رسول الله :

اما قريش فاني لا اسالمهم … حتى ينيبوا عن الغيات للرشد
ويتركوا اللات والعزى بمعركة … ويسجدوا كلهم للواحد الصمد
ويشهدوا ان ما قال الرسول لهم … حق ، ويوفوا بعهد الله والولد (١)

وذلك شداد بن عارض الجشمي يقول حين مُسحت معالم اللات ناهياً ثقيفاً عن العودة اليها :

لا تنصروا اللات ان الله مهلكها … وكيف نصركم من ليس ينتصر
ان التي حرقت بالنار فاشتعلت … ولم تقاتل لدى احجارها هدر
ان الرسول متى ينزل بساحتكم … يظعن وليس بها من اهلها بشر (٢)

ويهزم المشركون من اهل حنين فتقول امرأة من المسلمين :

غلبت خيل الله خيل اللات … وخيله احق بالثبات (٣)

وفي فتح المسلمين لمكة وتكسيرهم اصنامها التي سكنت جوف الكعبة يقول تميم بن اسد الخزاعي :

وفي الاصنام معتبر وعلم … لمن يرجو الثواب او العقابا (٤)

واراد فضالة بن عمير بن الملوح ان يغتال النبي وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فشعر به النبي ودنا منه وقال : ـ أفضالة ؟!

ـ نعم فضالة يا رسول الله .

ـ ماذا كنت تحدث به نفسك ؟!

ـ لا شيء ! كنت اذكر الله !!

فضحك النبي وقال له : استغفر الله !

ووضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول :

ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء احب الي منه !

وفي طريقه الى اهله طلبت امرأة منه ان يجلس اليها كعادته يحدثها فأبى وانبعث يقول :

قالت هلم الى الحديث فقلت لا ! … يأبى عليك الله والاسلام
او ما رأيت محمداً وقبيله … بالفتح يوم تكسر الاصنام
لرأيت دين الله اضحى بيناً … والشرك يغشى وجهه الاظلام (٥)

ويسمع رجل من مزينة بالنبي ، وكان سادن صنم اسمه نهم، فيكسره ويذهب لكي يعتنق الدين الجديد وهو يقول :-

ذهبت الى نهم لاذبح عنده … عتيرة نسك كالذى كنت افعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها … اهذا اله أبكم ليس يعقل
أبيت فديني اليوم دين محمد … اله السماء الماجد المتفضل (٦)

(١) السيرة : ص ٨٣٨ (٢) كتاب الأصنام : ص ١٧
(٣) السيرة : ص ٨٤٩ (٤) السيرة ص ٨٢٥ (٥) السيرة ص ٨٢٥ ، وراجع كتاب الاصنام ص ٣١ ، واخبار مكة ص ٧٦
(٦) كتاب الاصنام ص ٣٩-٤٠

ومثله المستوغر الذي كسر رضى وقال :

ولقد شددت على رضاء شدة … فتركتها تلا تنازع اسحما
ودعوت عبد الله في مكروهها … ولمثل عبد الله يغشى المحرما (١)

وكذلك قول عمرو بن الجموح ذاكراً صنمه وحامداً ربه على ايمانه الجديد الذي انقذه من ظلمات القبر (٢) . ومثل هذا في حديث الآله ذي الخلصة (٣) وسعد (٤) وذي الكفين (٥) ، وقد مر بنا الكلام عنها في فصول سابقة .

وفي القصيدة الدالية :

الم تغتمض عيناك ليلة ارمدا … وبت كما بات السليم مسهدا

يشير اعشى بني قيس الى عبادة الانصاب والاوثان، وينهى عنها فيقول :

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه … ولا تعبد الاوثان والله فاعبدا
وسبح على حين العشيات والضحى … ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا (٦)

ب ـ التمسك بها

هذا ، والقسم بالآلهة من الامور الكثيرة الوقوع في شعر الوثنيين العرب . ولعله اشهر ظاهرة تشير الى صلتهم القديمة بهذه

(١) كتاب الاصنام ص ٣٠ ، وراجع البداية والنهاية ص ١٩٢ ج ٢
(٢) السيرة ص ٣٠٤ (٣) السيرة ص ٥٦ (٤) السيرة ص ٥٣
(٥) كتاب الاصنام ص ٣٧ (٦) راجعها كاملة في السيرة ص ٣٨-٣٩

الآلهة . وكانت اللات والعزى تتمتعان بنصيب وافر من هذه الأيمان ، حتى ان قريشاً كانت وهي تطوف بالكعبة تحلف بها: واللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى !

ولهذا لا استبعد ان كلمة « الله » الواردة في البيت التالي :

وذكرته بالله بيني وبينه ... وما بيننا من مدة لو تذكرا

انما كانت « اللات » سابقاً ، فلحقها التحوير فيما بعد. وسياق البيت الثاني الذي يتلوه يوافق هذا الظن . فالشاعر يقول:

وبالمروة البيضاء يوم تبالة ... ومحبسة النعمان حيث تنصرا (١)

ومعروفة ان المروة البيضاء هي ذو الخلصة .

ويهجو المتلمس عمرو بن المنذر لطرده له فيحلف باللات والانصاب ان لا ينجو منه ، قال :

اطردتني حذر الهجاء ولا ... واللات والانصاب لا تئل (٢)

ويحلف اوس بن حجر ايضاً باللات والعزى فيقول :

وباللات والعزى ومن دان دينها ... وبالله ان الله منهن اكبر (٣)

غير انني لا أظن ان شاعراً جاهلياً قديماً مثل اوس بن حجر تموج في صدره هذه العاطفة الدينية نحو الله ! حتى ولو كان متحنفاً او – كما يظن شيخو – نصرانياً . وكذلك لا أرى في المصرع الاخير سياقاً منطقياً للبيت ، فليس بعيداً ان يكون البيت – وخصوصاً المصرع الأخير – « وبالله ان الله منهن اكبر » ؟! قد لعبت به اليد الاسلامية .

وكان ابو جندب الهذلي يهوى امرأة فذكر في حديث له معها انها حلفت بالعزى . قال :

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة ... بفرع التي احمت فروع سقام

وسقام هذا شعب حمته قريش للعزى من وادي حراض ، ويقسم درهم بن زيد الأوسي برب العزى :

اني ورب العزى السعيدة .

وكان للعزى منحر يعترون عليه ، يقال له الغبغب ، ولقد ذكره شعراً ابو خراش الهذلي ، ونهيكة الفزاري ، وقيس بن الجدادية الخزاعي (٤) .

وبمناة يقسم عبد العزى بن وديعة المزني فيقول

(١) كتاب الاصنام ص ٣٥ (٢) نفس المصدر ص ١٦
(٣) نفس المصدر ص ١٧ (٤) كتاب الاصنام ١٩-٢١

(وينسب لغيره) :

اني حلفت يمين صدق برة ... بمناة عند محل آل الخزرج (١)

ولم تكن هذه الاصنام الثلاثة الوحيدة التي كانت يقسم بها، بل هناك اصنام عديدة مثل « نهم » و « عائم » و «ذي الخلصة» و « هبل » و « الاقيصر » . وعداها كثير . ففي الاقيصر مثلاً يقسم زهير فيقول :

حلفت بأنصاب الاقيصر جاهداً ... وما سحقت فيه المقاديم والقمل

ويذكره ربيع بن ضبع الفزاري في قوله :

فانني والذي نغم الاله له ... حول الاقيصر تسبيح وتهليل

وكذلك الشنفرى يحلف بأثواب هذا الصنم :

وان امرءاً أجار عمراً ورهطه ... علي وأثواب الأقيصر يعنف(٢)

وهنالك غير القسم وجوه اخرى للدلالة على تمسكهم بهذه الآلهة ، ولعل في ارتدادهم الى عبادتها قبل موت النبي وبعده، ظاهرة بينة على هذا التمسك . ولقد اشار الى ارتداده رجل (مقيس بن صبابة) وفد مكة مسلماً ، وطلب من النبي دية اخيه الذي قتل خطأ ، فلما امر له النبي بدية أخيه (هشام) واقام عند النبي غير كثير ، عدا على قاتل اخيه فقتله وخرج من مكة مرتداً ، وفي رجوعه كان يقول :

شفى النفس ان قد بات في القاع ... يضرج ثوبيه دماء الأخادع
وكانت هموم النفس من قبل قتله ... تلم فتحميني وطاء المضاجع
حللت به وتري وادركت ثؤرتي ... وكنت الى الأوثان اول راجع(٣)

ويرد عبد الله بن الزبعري على أحد الشعراء المسلمين معارضاً له بالوزن والقافية والغرض فيقول من ابيات :

ومن عجب الأيام والدهر كله ... له عجب من سابقات وحادث
لجيش أتانا ذي عرام يقوده ... عبيدة يدعى في الهياج ابن حارث
لنترك أصناماً بمكة عكفاً ... مواريث موروث كريم لوارث(٤)

ومما يذكر – كما اشرنا سابقاً – ان الجاهليين كانوا يحملون آلهتهم او رموزاً لها في المعارك يستنصرونها على الاعداء ، ولا استبعد ان يكون قول ابي سفيان في أحد : أعل هبل انما كان

(١) كتاب الاصنام ص ٣٧ (٢) المصدر نفسه ص ٣٨-٣٩
(٣) تاريخ الطبري ص ١٥١٦ ج١، والكامل لابن الأثير ص ١٤٨ ج٢
(٤) السيرة ص ٤١٧-٤١٨

خطابا لرمز كانوا يحملونه مع غيره ـ كاللات والعزى ـ في هذه المعركة مستنصرين به اله مكة « هبل » ، هذا الاله الذي دخل عليه في جوف الكعبة عبد المطلب حاملاً محمداً وهو ، بعد ، طفل صغير(١).

وانني لأرى في قول بعضهم :

وسار بنا يغوث الى مراد
فناجزناهم قبل الصباح(٢)

تأييداً لفكرة حمل الآلهة في الحروب واستنصارها على الاعداء ، وما رأيك في قول الكميت بن زيد :

وقد آلت قبائل لا تولي
مناة ظهورها متحرفينا(٣)

الا يدل هذا على ما نذهب اليه من حمل الآه القبيلة على جمل او ضرب قبة له يحميها القائد او الشيخ في القتال ؟ وبعد ذلك الا يكون هذا الرمز بدلاً من الراية التي ترفرف اليوم على مراكز القيادة في الجيش المحارب ؟

وانظر كيف كانوا يلهبون الحماس الديني في نضال الرسول . قال الحارث ابن هشام بن المغـيرة من قصيدة له (وتروى لغيره) في يوم بدر :

فيال لؤي ذببوا عن حريمكم
وآلهة لا تتركوها لذي فخر
توارثهـا آباؤكم وورثتم
اواسيها والبيت ذا السقف والستر(٤)

ثم انظر كيف انهم في بدء زحفهم للقتال يجتمعون في مكة حول الانصاب ويسيرون من عندها ، كما يقول ابن الزبعري ، في يوم الخندق :

واذكر بلاء معاشر واشكرهم
ساروا بأجمعهم من الأنصاب
انصاب مكـة عامدين ليثرب
في ذي غياطل جحفل جبجاب(٥)

وكيف انهم اذا فشلوا في الحرب ينقلبون الى آلهتهم خاسرين فيقول ضرار ابن الخطاب الفهري :

وفرت ثقيف الى لاتها
بمنقلب الخائب الخاسر(٦)

ويبكي ابو خراش الهذلي (دبية السلمي) سادن العزى لما قتله خالد بن الوليد بعد ان هدم العزى ، وقتل المرأة السوداء التي خرجت من جوفها ، وكان دبية قد حذا ابا خراش نعلين جيدين ، ولهذا يرثيه في ابيات منها :

ما لدبية منـذ اليوم لم أره
وسط الشروب ولم يلمم ولم يطف
أمسى سقام خـلاء لا أنيس به
الا السباع ومر الريح بالغرف(٧)

جـ ـ الطواف حول الانصاب والعتر عندها

والحديث في حد ذاته يتبع ما



(١) البداية والنهاية ص ٢٦٤ جـ ٢ (٢) كتاب الاصنام ص ١٠ (٣) السيرة ص ٥٥
(٤) نفس المصدر ص ٥١٧
(٥) السيرة ص ٧٠٢ (٦) السيرة ص ٣٢
(٧) كتاب الاصنام ص ٢٤

ذكرناه في الكلام عن الطواف والذبح ، وهنا سوف لا نعرض الا الى الناحية الشعرية منه .

والطواف والدوران يعطيان معنى واحداً ، غير ان الدوار يجيء ايضاً بمعنى الصنم الذي يدار حوله ، او اسماً لصنم كانوا يدورون حوله في الجاهلية .

ولقد جاء في كتاب الأصنام ان الدوار الطواف بالأنصاب[1] كما جاء بمعنى الصنم قوله : « ان لبني شيث دواراً يدورون حوله ويعظمونه » [2] .

وفي المعنى الاول يقول عامر بن الطفيل وقد اتى اخواله (غنياً) فرأى فتيات يطفن جمالاً فقال :

الا يا ليت اخوالي غنياً ... عليهم كلما أمسوا دوار (٣)

ولعل عنتر يشير إلى هذا الدوار بقوله :

تركت بني الهجيم لهم دوار ... اذا تمضي جماعتهم تعود (٤)

ويقول النابغة :

لا أعرفن ربرباً حوراً مدامعها ... كأنهن نعاج حول دوّار (٥)

وفي المعلقة يقول امرؤ القيس :

فعن لنا سرب كأن نعاجه ... عذارى دوار في ملاء مذيل (٦)

واشار بعضهم الى عكوفهم على الصنم والتفافهم في خشوع . فقال جعفر بن خلاس الكلبي ، وقد نفرت ناقته من عتائر قدمتها عنزة لسعير :

نفرت قلوصي من عتائر صرعت ... حول السعير تزوره ابنا يقدم
وجوع يذكر مهطعين جنابه ... ما ان يحير اليهم بتكلم (٧)

وقال آخر يشير الى عكوف هذيل على سواع وعترها عنده :

تراهم حول قيلهم عكوفا ... كما عكفت هذيل الى سواع
تظل جنابه صرعى لديه ... عتائر من ذخائر كل راع (٨)

وكانوا احيانا ينذرون الى الصنم ناقة او شاة ، فاذا حان وقت الوفاء اصطادوا ظبياً بدلاً من الشاة او الناقة وقدموها قربانا للآله ، وقد اشار الى ذلك كعب بن زهير اشارة خفيفة فقال :

فما عتر الظباء بحي كعب ... ولا الخمون قصر طالبوها (٩)

(١) كتاب الاصنام ص ٣٣ و٤٢ (٢) المصدر نفسه ص ٥١
(٣) المصدر نفسه ص ٤٢ (٤) ديوان الحماسة لابي تمام ص١٦٧ج١
(٥) جمهرة اشعار العرب للقرشي ص ٨٤ (٦) العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين ص ١٤٩ (٧) كتاب الاصنام ص ٤١
(٨) كتاب الاصنام ص ٥٧ (٩) ديوان الحماسة ص ٤١٣ ج ١

ولعل قول الحارث بن حلزّة اليشكري اوضح من ذلك حيث يقول في معلقته :

عنتاً باطلاً وظلماً كما تعتر عن حجرة الربيض الظباء (١)

ومما يلحق بالعتر للآلهة تقدمة الابناء وغيرهم من بني البشر قرابين لها كما ذكرنا سابقاً . وقد ذكر امية بن ابي الصلت قصة الذبح الذي كاد ان ينفذه ابراهيم بولده فقال :

ابني اني نذرتك لله شحيطاً فدى لك حالي
واشتد الصفد لا أحيد عن السكين حيد الأسير ذي الأغلال
وله مدية تخايل في اللحم حذام حنية كالهلال
بينا يخلع السرابيل عنه فكه ربه بكبش جلال (٢)

ولما قيل لعبد المطلب — وقد نذر ولده عبد الله لهبل — افدِ !! قام وهو يقول :

عاهدت ربي وانا فوق عهده
أخاف ربي ان تركت وعده
والله لا يحمد شيء حمده

ثم احضر من الأبل مئة ، كما ذكرنا في قصته . وضرب بالقداح عليها وعلى عبدالله فخرجت على الأبل فكبّر الناس وقالوا قد رضي ربك ، فقال :

لاهمّ رب البلد المحرم
الطيب المبارك المعظم
أنت الذي اعتنى في زمزم

واعاد ضرب القداح فخرجت على الأبل فقال :

لاهم قد اعطيتني سؤالي
اكثرت بعد قلة عيالي
فاجعل فداه اليوم جل مالي

وما زال حتى ضرب الثالثة فخرجت على الأبل ، فنحرها ونادى مناديه الا فخذوا لحمها وانصرف عنها فوثب الناس يتناهبونها ، وبذلك يقول مرّة بن خلف الفهمي :

كما قسمت نهبا ديات ابن هاشم ... ببطحاء بل حيث يعتصب البرك

وصارت الدية من بعدها — كما يقول اليعقوبي — على ما سن عبد المطلب . [3]

محمود الحوت

(١) الحماسة للبحتري ص ٣٥٣ (٢) تاريخ الطبري ص ٣٠٨-٣٠٩ ج ١ (٣) تاريخ اليعقوبي ص ٢٩٢ ج ١

نيسان

نقولا قربان

*

الاجراس

عندما رأيتك ملأ الصمت عيني وانهمر على شفتي الف شلال فضي ، وسلال قصبية كثيرة .

*

ولقد كانت سماء الأصيل صغيرة فوق صدرك كورقة ورد متروكة في قعر كوب رخامي .

*

فتذكرت غياب الشمس على ساقك الشاردة يوم كنا نركض على الشاطىء ، حيث كانت زوارق الصيادين تنتظر وفي أضلاعها المساء .

*

واحببتكِ فعلمتُ انني مخلوق من الريح ، والشمس ، والقمر ؛ ومن عواطف الثلج ، والغدران اللؤلؤية ، والحقول المسنبلة ؛ ومن مواكب الارواح الحية المنتشرة على دروب الربيع .

*

وظلّ يضحك لكِ قلبي كما تضحك الشمس عند الأصيل بأفواه الاجراس المجنونة .

الفراشة

تطلعت فراشة حولها فرأت بأن جناحيها اكبر من الكون فعلمت حينئذ أنها تضيف الى الوجود حفنة من الالوان . وانها الآلهة التي تجعل الزهور تشعر بوجودها وبجمالها . فتكبرت وراحت تلعب حول مجاري المياه .

*

فزجرتها امها الطبيعة قائلة : الا تخجلين من العبث يازانية ، يا بنت الدروب .

فأجابتها الفراشة : لا يا اماه ! فانني عذراء ، واحب جميع الكائنات .

فقبلتها الطبيعة قائلة : أنت جميلة كمن ليس له أمل .

*

وبعد يومين أحبت الفراشة ان تموت صبية ، لانها عرفت بأن السهول الواسعة ، وضفاف الأنهار ، والغابة والمعصرة لا تزيد شيئاً على مساحة جناحيها ، فاحتملت ذاتها ، وارتمت على شوكة دخلت في صدرها . فانبجس دمها وجرى على جناحيها . وقبل ان تموت اوصت بشالها لوردة جميلة ، ثم اغمضت عينيها الزرقاوين

درج

يظل "نهدك كالنجمة على صدري ، يا للبيدر المنحوت ! فعصرت السماء بين أصابعي ، ولونت فمه بالزرقة المندفقة .

*

غداً عندما يمزق الفجر قميصه ، سآخذك معي على درج الشمس وأغسل رجليكِ بجرة نور .

*

الفضاء الارحب على فم السماء ، جسر مرمر في مقلتيك ، وهو يصل بين شباكنا والنجوم .

*

قولي ، الستِ انتِ من زرع الربى في بلادنا ، وجعل لها الجداول كقلائد تتدلى على صدرها . أجل اعترفي بذلك ، فالحب سر مخبأ في خاطرك كما تبقى الاعشاش في خواطر العصافير .

*

في بيتنا مقعدان او ثلاثة ، وبعض صور عتيقة ، ومنضدة من خشب الجوز ؛ وعندي في خزانتي قميص من حرير ، وشريطة لأختي ؛ فسأبيعها كلها لاشتري لكِ قمقم عطر ، وقلم حمرة ، وكتاباً من الشعر .

يا أختي

غداً تنسانا غرفتنا يا أختي ، يا نيسان . شباكها المجنون ، وسقفها الخشب ، وبراديها القصب ، وعلى عتبتها شالك الذي يلفق ، وكتاب الشعر على بساطها المسحور ، غداً تنسانا غرفتنا .

*

يا أختي نيسان ، وألف شفة من الليل مقطوفة ، غداً تنساها .

*

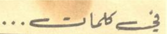
قنديلنا المبحوح ، وثلاث او اربع فراشات عاشوا فيها ، والف قبلة ممرغة بالزنبق المجروح .

*

فاتركي الشال الممزق ، على العتبة يلفق ، فهو لنا تذكار .

*

والمقعد المبعثر ، مخدة ومخدة وحرام ؛ والصورة التي بروازها سنديان ! والطاقة التي حلمت ان يبقى عليها النور ! غداً تنسانا غرفتنا يا أختي ، يا أختي نيسان .



في كلمات...

● اذيع في تقرير صحي للحكومة البريطانية ان الادلة « تتزايد » على وجود صلة قاطعة بين التدخين والسرطان الرئوي . وان الجو المشبع بالدخان له بعض التأثير على السرطان . وذكر التقرير كذلك انه لم يكتشف في الدخان بصفة قاطعة حتى الآن مواد يمكن ان تتسبب عنها الاصابة بالسرطان الرئوي .

● قال الدكتور كينجزي رئيس معامل ادارة الصحة الكندية ان الجو الملوث يؤدي الى الاصابة بسرطان الرئة وان الاحصاءات اثبتت ان عدد المصابين بهذا المرض من سكان المدن اكثر بكثير من سكان الريف ، وقال : ان الهواء الملوث يؤذي الصدر اكثر من التدخين بكثير .

● تقوم جمعية السرطان الاميركية بحملة واسعة لجمع مبلغ ٢٠ مليون دولار من اجل اجراء التجارب الذرية في معالجة امراض السرطان .

● نشرت صحيفة تريبونا دي امبرنسا البرازيلية ان الدكتور اوتاتيونيباس الطبيب البرازيلي الذي تخصص في دراسة السل في المانيا اكتشف طريقة جديدة عظيمة الشأن في علاج هذا المرض الخطير بحقن المريض بمركب من الاستربتوميسين وحامض الامينوساليسيليك مع استخدام بعض العقاقير المساعدة الاخرى .

● يستطيع المصابون بضعف القلب او بارتفاع الضغط الدموي ان يتناولوا حليباً طازجاً تنخفض نسبة الصوديوم فيه ولا يختلف هذا الحليب في شكله او طعمه عن الحليب الاعتيادي وقد اذاعت جمعية امراض القلب الاميركية ان كيماوياً من كاليفورنيا ، استطاع تخفيض نسبة الصوديوم في الحليب بمقدار ٩٠ بالمئة لمصلحة المصابين بالامراض المذكورة الذين لا تلائمهم الكمية العالية من الصوديوم في الحليب .

● يؤكد بعض الاخصائيين في المانيا ان البرد افضل وانجع الادوية للصلع ولإعادة نمو الشعر ولتحقيق نظريتهم هذه يلفتون الانظار الى الرواد القطبيين الذين يعودون بعد اجتيازهم تلك الاصقاع الجليدية بشعور كثة .

قال الرحالة شاكلتون في احدى محاضراته ان كثيرين من رفقائه الذين قبل سفرهم الى القطب كانت رؤوسهم ككرات «البليار» عادوا بشعور كثيفة حتى ان ذويهم لم يعرفوهم عند النظرة الاولى . وقال ان برد القطب القارس هو الذي اعاد الحياة الى شعورهم .

وزاد الرحالة على هذا بقوله ـ لا شك ان اسباب الصلع ميكروب يقتله البرد الشديد فيعيد بصيلة الشعرة الى سابق نموها ، ومتى عاد الحر عاد الميكروب الى النشاط . واستند الى ما يعاينه في الذين يعملون في معامل تجليد اللحم من ان شعورهم طويلة نشيطة وهم لا يصابون بالصلع فالاختبار يدل على ان الحرارة مجلبة للصلع كما ان سقوط الشعر في فصل الصيف هو اكثر منه في فصل البرد . ولنمو الشعر في فصل البرد سبب آخر يؤثر فيه وهو ناموس الموافقة . فالطبيعة تجهز الجسد بالشعر لوقايته من البرد ، والدليل على ذلك هو ان سكان الاقاليم الجليدية هم اكثر الناس شعراً . واستناداً الى هذه الحقائق انشأ احد الاساتذة الاميركيين مستشفى للصلع على علو ثلاثة الاف قدم عن سطح البحر في قمة جبل لا تذوب ثلوجه .

● استطاع الدكتور شافر ، الاستاذ بجامعة كامبريدج انه عزل مادة « الاكرازين » وهي مركب كيماوي فيه كل اسرار الحياة في مراحلها العليا .

وبهذا يكون الدكتور شافر اول عالم استطاع عزل هذه المادة وهو يوجد الآن في جامعة برنستون حيث يقوم بابحاث ودراسات مع الدكتور جون دونر لتحديد العناصر التي يتكون منها «الاكرازين» وقد اذاع دونر نبأ هذا الكشف .

ويقول دونر ان الاكرازين يجعل الخلية الواحدة جسما حياً يتألف من مئات الخلايا ويعتقد العلماء ان مادة طبيعية سامة لزجة – كانت توجد منذ حوالى ٢٠٠٠ مليون سنة – هي التي انتجت هذا المركب السحري الذي جعل الخلية الواحدة – منشأ الانسانية – عالماً ضخماً يكاد يضيق بسكانه .

وقال ان تطور الحياة بواسطة «الاكرازين» كان على الوجه التالي :

اولاً – اجسام حية من خلية واحدة

ثانياً – حيوانات ونباتات من عدة خلايا .

ثالثاً – تخصص الخلايا والانسجة في اداء وظائف معينة .

رابعاً – التكوين الجنسي للانسان والحيوان .

وكان الاكرازين هو العامل الرئيسي في كل مرحلة من مراحل هذا التطور .

● اعلن الدكتور ايرفن بايج مدير الابحاث في مختبر كليفلند انه يمكن التوصل الى طريقة لتخفيف حوادث تصلب الشرايين التي تسبق النوبات القلبية ولكن لا يوجد طرق عملية لمنع حصول التصلب او شفائه بصورة نهائية .

● استنبط مؤخراً نوع جديد من (التورنيكي) وهو اداة تضغط على الشرايين لايقاف النزيف ، يقال انها توقف نزيف الدم من الطرف المجروح بسرعة اكثر واوفى وذلك بوضع قماط مجوف حول طرف المريض بين الجرح والقلب وينطلق ثاني اوكسيد الكربون من اسطوانة مرفقة فينفخ «القماط» ويسبب ضغطاً كافياً لايقاف النزيف

● اعلنت المصلحة الطبية في الجيش الاميركي ان الادوية الحديثة واساليب المعالجة الفنية الجديدة قد خفضت معدل المرض لدرجة كبيرة بين صفوف قوات الجيش الاميركي وبصورة خاصة مرض الملاريا .

● صرح الدكتور ليونارد شيل رئيس مصلحة الصحة الاميركية ان العلاجات الطبية الاميركية يجب ان تصبح بمتناول جميع المحتاجين اليها لكي تساعدهم على مكافحة المرض . وقال لا يوجد في بعض المناطق العالمية سوى طبيب واحد لكل ١٠٠ الف نسمة . فهذه الاماكن بحاجة المساعدة وعلى الذين يتمكنون من تقديم المساعدة ان لا يترددوا في القيام بمثل هذا العمل الانساني العظيم .

● استقبلت الولايات المتحدة علاجاً جديداً اطلق عليه اسم « بروفلوران » لتحسين شهية الابقار والخراف المريضة والمساعدة على شفائها ، فعندما يعطى هذا العلاج الكيماوي للحيوانات مع علفها ، يؤدي الى ازدياد الجراثيم المفيدة في كروشها وهذه الجراثيم تساعد على تحليل العلف الذي اكله وبذلك تزداد شهيتها ويسرع شفاؤها .

● اذاع الدكتور غارنت شيني من مدرسة الطب في ستانفورد بكاليفورنيا طريقة جديدة يستخدم فيها عصير الملفوف المكثف لشفاء القرح المعدية .

وكان المصابون بقرحة المعدة يعالجون قبل ذلك بشرب ربع غالون من عصير الملفوف العادي يومياً . ويكفي الآن تناول ٣ ملاعق يومياً من هذا العصير المكثف .

وقد اجريت التجارب على ١٠٠ مريض وقد اتضح ان آلامهم قد زالت بعد تناول العلاج بخمسة

وقد رحب اعضاء المجلس التنفيذي باقتراح الاستاذ لوجيه ، ووافقوا على ضرورة تنظيم حملة دولية لدرء السرطان ، مع التعاون الوثيق في هذا مع الهيئة الصحية الدولية . كما قرر المجلس البدء مباشرة بدراسة اسس التعاون في هذا الميدان .

ايام وشفيت القرح في معظم الحالات خلال ١٣ او ١٤ يوماً وهي نفس العادة التي كان يتطلبها العلاج بالعصير العـــادي .

والمكثف الذي يستعمل في هذه الحالات تام التجفيف ويوضع ضمن برشامات وهو من انتاج شركة « ميرك » .

● ذكرت مجلة « كوليرز » ان العلماء في جميع انحاء العالم يجرون تجارب على نوع من النباتات وحيدة الخلية اعتقاداً منهم انه يحوي موارد لا تنفذ للتغذية والطاقة التي تشمل كل مقومات الابقاء على الحياة. والمادة التي يريد العلماء استخلاصها من هذا النبات الذي يطلق عليه اسم «الجاي» عبارة عن مسحوق او عجينة مصنوعة من الاف الملايين من هذا النبات الميكروسكوبي الوحيد الخلية .

وتحوي المادة بروتينات ومواد وفيتامينات ويمكن ان تحرق وتحل محل الوقود لاستنباط الكهرباء والحرارة ، وقد تحل محل الفحم والبترول الذي يستخدم الآن بكثرة مما جعل بعض العلماء يعتقدون ان معين الفحم والبترول قد ينضب خلال ١٧٥ عاماً .

وقالت المجلة « واكثر من ذلك ان نبات الجاي » يمكن انماء اية كمية منه في اي مكان في العالم اذ يتسنى ذلك في المحيطات والبحيرات والبرك وحتى في الصحارى الجرداء فكل ما يحتاج اليه من يعنى بامر الاكثار منه هو الضوء والماء وبعض المواد الكيمائية الرخيصة الثمن .

وتقوم الابحاث على قدم وساق في اليابان وغيرها من البلاد المزدحمة بالسكان لبناء مصانع كبيرة « لغذاء المستقبل » ولم تفكر الولايات المتحدة بعد في بناء مصنع لوفرة انتاجها من المواد الغذائية وتكتفي الان بمعاونة اليابان على بناء مصانع لانتاجه.

● يقوم احد المعامل الكيماوية في نيويورك بعمل عجينة من البنسلين لها طعم الزبدة ورائحتها ليتناولها الاطفال كل صباح مع طعام الافطار وبذلك يمكن التغلب على الامراض التي تكتنف حياة الاطفال في هذه الفترة من العمر .

● استنبطت احدى الشركات الصناعية غذاء زهيد الثمن يحتوي على كمية عالية من البروتايين يصنع من السمك وبواسطة عملية الاستخلاص بالتحليل والتجفيف يحول السمك الى مادة تشبه الدقيق يمكن حفظها وبقاؤها صالحة للاكل في حرارة الغرفة العادية لمدة خمس سنوات .

وقد قال رئيس الشركة التي تصنع هذا الغذاء انه قد يساعد الاقطار التي تنقصها الاغذية على حل مشاكل التغذية التي تواجهها باضافة هذا الغذاء الى الخضار والحبوب لزيادة قيمتها الغذائية .

● قامت احدى الهيئات الصحية في نيويورك بفحص الثلج الذي يوضع في اكواب المياه التي تقدم في المطاعم وفي المحال العامة فوجدت انه يحتوي في اغلب الاوقات على انواع عدة من الميكروبات التي تسبب الاضطرابات المعدية والاسهال هذا الى نسبة غير قليلة من المواد الصلبة الغريبة كما ظهر ان اغلب هذه الميكروبات والقاذورات لوث بها الثلج اثناء نقله او قيام الخدم باعداده للاستعمال .

● ظهر من الابحاث الجارية في استراليا ان نقص فيتامين (أ) في غذاء الدواجن يسبب عدم انتاج البيض وموت الدجاج ولكن لا اثر لقلة المختزن من فيتامين (ا) في جسم الدجاج، على حالات الاخصاب والفقس والشواذ ناتج من الكتاكيت.

● اجريت في بريطانيا اخيراً تجارب ناجحة لزيادة لحوم الدجاج وهي تتلخص في اعطاء الديكة جرعات من هرمونات الفراخ المركبة ولقيت هذه الطريقة اقبالا شديداً في مزارع الدواجن لانها تزيد كثيراً من وزن الديكة .

● اصبح بمقدور القطن ، بعد ادخال تعديلات كيميائية عليه ، ان يضاهي الصوف والالياف الصناعية في ايجاد اسواق جديدة .

وقد صرح احد كبار علماء القطن الاميركيين ان الصفات الطبيعية الموجودة في القطن تجعله اهم مصدر للالياف التي تنفع في كل مضمار .

• اعلن اخصائي في احد المؤتمرات الطبية التي عقدت اخيراً انه يستطاع تشخيص امراض عدة مختلفة باستعمال السماعة الالكترونية ووضعها فوق المفاصل وذلك لان المفاصل في كل من هـذه الامراض يصدر عنها صوت خاص يمكن ان تعرف به .

• اعلن الاستاذ ماسواتسو سوكي ،الذي قام بفحص الصيادين اليابانيين الذين اصيبوا بالاشعاع الذري بانه من الواجب تحريم استعمال القنبـلة الهدروجينية في الوقت الحاضر ، ومن المعروف ان الاستاذ المذكور كان مدير جامعة طوكيو وقد القى كلمته هذه في الاجتماع الذي عقدته لجنة الصليب الاحمر الدولية في جنيف ، حيث تدرس الوسائل الواجب اتباعها لحماية المدنيين اثناء نشوب حرب جديدة .

وقد اعلن ان المصاب بالاشعاع الذري قد يحس بألم شديد بعد مدة ثماني سنوات من اصابته به.

• تحقق خبراء مختبرات جامعة سابورو في اليابان بان الثلوج التي هبطت في الثاني من ابريل كانت مشحونة بالاشعاع الذري .

وقد منعت السلطات اليابانية بيع كميات الطون التي تبلغ ستة وعشرين الف كيلوغرام والتي اصيبت بالاشعاع الذري في قارب الصيد شوهومارو وعندما فجرت القنبلة الهيدروجينية .

• اعلن في لندن ان احدى الدجاجات التي تغذت ببعض المواد والمزروعات التي انتقلت اليها الاشعاعات الذرية باضت اول « بيضة ذرية » في العالم ، ويقوم الاخصائيون البريطانيـون الان بفحص هذه البيضة الذرية .

• اثبتت الطـاقة الذرية بصورة عملية ان بامكانها تشغيل المعامل الصناعية وذلـك باجراء التجارب التي قام بها علماء الولايات المتحدة وبريطانيا ويتنبأ بعض العلمـاء انه حتى سنة ١٩٧٥ ستصبح عشرة في المئة من صناعة الولايات المتحدة تشتغل بالكهرباء التي تنتجها الطاقة الذرية .

وستنتج المولدات الكهرباء بواسطة المحركات التي يديرها البخار . وسيستحصل على البخار الذي يدير المحركات من الحرارة التي ينتجها فرن ذري صغير وسيستعاض بالفرن الذري عن الفحم والزيت اللذين يستعملان اليوم لهذه الغاية .

• قال هربرت موريسون وزير خارجية بريطانيا السابق ان روسيا تنتج الان قنبلة « النتروجين » التي يفوق خطرها أضعاف قوة الهيدروجين ؟

• اعلن مختبر ارغون الاهلي بشيكاجو ان خبراءه توصلوا مؤخراً الى صنع آلة تستخدم الطاقة الذرية بدل الكهرباء للتصوير بالاشعة النافذة. ومن اهم خصائص هذه الآلة انها صغيرة يمكن حملها ونقلها الى المريض وانها تستخدم مادة « الثليوم » بدل الكهرباء .

• اصبح صانعو المنسوجات الآن يستعملون اداة جديدة من اجل فحص منسوجات (التريكو) فحصاً اوتوماتيكياً واكتشاف العيوب الموجودة فيها فوراً ، وقد استنبطت هذه الاداة شركة كلينيس الاميركية بمدينة نيويورك .

ويتألف هذا الاستنباط من مصباح انبوب ضوئي ، وجهاز بصري مركب على عجلة صغيرة يتحرك للامام وللوراء ، فوق النسيج على بعد قيراط واحد من ابر الحياكة وعندما تكون الامور سائرة على خير ما يرام ، يعكس القماش ضوء المصباح الى الانبوب الضوئي. وعندما يكون هنالك عيب في القماش ، ولنقل خيط مقطوع مثلاً يقل انعكاس الضوء وتستجيب الآلة الى ذلك باغلاق آلة النسيج .

• اكتشف احد العلماء في الكلية الزراعية الميكانيكية ، بتكساس مادة جديدة قد توفر على مربي الطيور الداجنة ملايين الدولارات في كل عام وذلك بزيادة عدد البيض الملقح الذي يصلح للتفقيس .

ويسمي العلماء هذه المادة العامل (ل) وهو موجود في مكثفات الكبد وبعض اجزاء السمك وعندما اضيف العامل (ل) الى علف الدجاجات ازداد عدد البيض الذي يصلح للتفقيس ١٠ بالمئة عن المعدل الاعتيادي .

ويقدر ان مربي الدجاج في امريكا يخسرون ٣٥ مليون دولار في كل عام من جراء استعمالهم البيض الذي لا يصلح للتفقيس ذلك انه عادة لا تفقس من كل مئة بيضة سوى ٦٨ فقط . اما اذا اصبح بالامكان عزل العامل (ل) وجعل الاتجار به ميسوراً فانه سيخفض هذه الخسارة تخفيضاً كبيراً .

• سجل بروس روبرتس احد المخترعين في فلادلفيا اختراعه « رسائل ناطقة » ويمكن ارسالها بالبريد وايداعها باضبارة كالرسائل التي تطبع على الالة الكاتبة .

وقد شرح بروس اختراعه قائلاً ان آلته تستعمل ورقاً ممغنطاً فيملي التاجر رسالته في آلة تسجيل ثم يخرج الورقة الممغنطة التي سجلت عليها رسالتـه ويعنونها ثم يرسلها بالبريد ويستعمل المرسل اليه آلة مماثلة فيستمع الى الرسالة بدلا من قراءتهـا وتعطي آلة التسجيل نسخة طبق الاصل يمكن للمرسل الاستماع اليها اذا شاء ان يتذكر ما املاه.

• تقول رابطة العلماء الالمان في المانيا الغربية انه ثبت بعد الابحاث التي قام بها العلماء المذكورون ان مياه البحر تحتوي على ثمانية مليارات طن من الذهب تبلغ قيمتها ثلاثين مليون مليار مارك وذكر العلماء انهم لم يتمكنوا حتى الان من اكتشاف وسيلة ناجحة لاستخراج الذهب من مياه البحر كما ان هذه المياه تحوي على ٧٠٠ مليار طن من الفضة و١٣ مليار طن من القصدير .

• كثيراً ما كانت ربة المنزل تخشى على الاواني والرياش واغطية المائدة والاقمشة مما يندلق فوقها او ينصب من المشروبات والسوائل العديدة التي تحدث فيها عطباً واضراراً كبيرة قد تجعل استعمالها ثانية امراً غير ممكن. وقد حاول العلماء والخبراء الصناعيون في كثير من مراكز الابحاث البريطانية ايجاد مادة تقي هذه المفروشات والادوات البيتية من فعل السوائل ووقايتها من التلف او التشويه فوفقت الى ذلك باستحداث مادة كيماوية جديدة تزيل كل لطخة على الادوات دون ايذائها كما صنعوا اقمشة لا تؤثر فيها السوائل والحرارة او المادة الكحوليـة للاستعمال في المنزل في مختلف الحاجات .

• اعلنت وكالة الصين الجديدة انه عثر على عظام متحجرة لحيوانات ما قبل التاريخ كانت موجودة منذ ٣٠٠ الف سنة .

ويقول العالم الطبيعي بي ون شونج انها عظام بعض الفيلة والدببة التي كانت تعيش في العصور الغابرة.

• صرح المستر هـ. ي. ادين المتخصص في شؤون الاشعاعات الفلكية ان الانسان اذا استطاع الاتصال بكوكب « المريخ » فسوف يتم هذا عن طريق اشارات اللاسلكي وليس عن طريق القذائف الجوية التي تحمل الانسان، وقال ان معمله استطاع التقاط موجات اثيرية صادرة من سحابة هيدروجينية تقع خلف المجموعة الشمسية بكثير ، فاذا امكن ايجاد اجهزة تستقبل مثل هذه الموجات اصبح من السهل الرد عليها بواسطة اللاسلكي

• توصل مخترع الماني الى اختراع آلة كهربائية على شكل مروحة كبيرة يمكنها ان تقوم يومياً بغسل اقمشة مختلفة تقدر بثلاثة اطنان ونصف الطن ، وقد وضعت هذه الآلة في معرض هانوفر في المانيا ليشاهدها الجميـع ، وستستخدم في المصانع الكبرى والمستشفيات ومغاسل الجيوش .

● نشأ عن مواصلة تحسين الآلات الحاسبة الاوتوماتيكية ، او الادمغة الميكانيكية زيادة عظيمة في الاسراع بحل المسائل الرياضية المعقدة . فقد حلت مؤخراً عملية هندسية ذات مدى واسع يستغرق حلها ١٥ عاماً اذا استعمل فيها القلم والقرطاس كتجربة اختبارية وذلك للمقارنة .

وقد اتضح ان الآلة الحاسبة ذات الارقام العديدة التي استنبطت سنة ١٩٤٤ قدتمكنت من حل المسألة في ٦٢ يوماً . ثم جربت المسألة ذاتها على الآلة الحاسبة الالكترونية التي انتجت قبل سنوات قلائل فاستحصل على النتيجة في غضون ساعتين ثم جرب حل المسألةذاتهابالآلةالالكترونية المخترعةسنة ١٩٥٣ فاعطتالجوابفيبرهةدقيقتين.

● عرضت احدى شركات صنع الدهان في الولايات المتحدة نوعاً جديداً من الدهان ينبعث منه ثاني اوكسيد الكربونوالكالسيوم كلورايد عند تعرضه للنيران وهما المادتان اللتان تساعدان على اطفاء النيران ومنعها من الانتشار .

ويدعى الدهان الجديد « فايركوت » وقد اوصي باستعماله في المدارس والفنادق والمستشفيات والمصانع لانه يساعد على اخماد الحريق .و معظم انواع الدهان المستعملة حالياً تحوي على العموم مواد ملتهبة تساعد على انتشاز النيران .

● استنبط علماء الصناعة في الولايات المتحدة منتوجاً جديداً يحول دون حدوث الغشاء السميك المزعج الذي يتكون على سطح الدهان فيالعلب المستعملة ، ويسمى المستحضر الجديد « ماربون ٩٢٠٠ » ، وقد استنبطته شركة بورغ وارنر من شيكاغو .

وهذا المستحضر عبارة عنمستحضر بلاستيكي قابل للذوبان وتقول الشركة انه عندما يضافالى الدهان، يحفظه دائماً ابداً من تكوينطبقةسميكة على سطحه ، بحيث يمكن استعمال كل نقطة منه ، كما انه يكون معداً للاستعمال الفوري في كل آن . وبالاضافة الى ذلك فانهم يقولون ان الدهان الذي يحتوي علىمادة«ماربون ٩٢٠٠» تزول رائحته بسرعته ويطول امدهويتحمل التقلبات ويقاوم الاسيدات والقلويات والدخان الصناعي ويحتفظ بلونه الاصلي وزهوته ولمعانه امداًاطول من انواع الدهان الاعتيادية .

● شرع الدكتور رالف سوي المدير الفني للابحاث التي يقوم بها الجيش الاميركي لايجاد طريقة جديدة صالحة لحفظ المواد الغذائية التي توزع على مراكز القوات الاميركية ، باجراء تجارب ذرية جديدة لاستخدام الاشعاع الذري كوسيله لحفظ هذه الاغذية .

فقد سلمت لجنة الطاقة الذرية الدكتور سوي مشروعاً لمدة خمس سنوات يقضي باجراء تجارب واسعة لحفظ الاغذية بطريقة التعقيم الناتج عن الاشعاع الذري .

وصرحالدكتور سوي انتتائجالابحاثالاولى التي اجراها تبشر بالنجاح وانه قدتم بالفعل حفظ بعضانواعالاغذية بتعريضها الىالاشعاعاتالذرية واوضح انه لا يتوقعانتستخدم هذهالطريقة على نطاق ناجح واسع قبل مدة خمس سنوات .

● قد تكون بعض الخرادق من الصغر بحيث يتسع كشتبان صغير لمئتين منها : ومن الصعب ان لم نقل من المستحيل تنظيف كل خردقة منها على حدة غير ان هذه العملية قد اصبحت الآن سهلة بعد ان اوجدتشركة جنرال الكتريكبنيويورك آلة للتنظيف اطلقت عليها لدقة صنعها وقوتها اسم الالة فوق الصوتية .

وتنظف الالة الاشياء بارسال موجات من الذبذباتالصوتيةالعالية جداً خلال سائل للتنظيف. وقدشاع استعمال هذه الالة في الصناعة ومنالسهل تنظيف الاشياء الصغيرة الدقيقة واجزاء المضخات وقطع الساعات والعدسات بغمرها بالسائل حيث تنظفها بسرعة تنظيفاً تاماً بالذبذبات الصوتية .

● استنبط في الولايات المتحدة نوع جديد من البطاريات يؤمل ان يعمر مدة تتراوح مابين عشر سنواتوعشرين سنة .وتستعمل فيالبطاريةخلايا النيكل بدلا من الرصاص ويبلغ حجمها نصفحجم البطاريةالعادية كما انها تكلف نصف تكاليف الاولى

وهذه البطارية التي استنبطتهاشركةستونتون في ايلمسفورد بنيويورك ، لا تتأثر بالهزات ولا بالذبذبات ، كما انها تخلصنا من احتمال حدوث الشحنات الزائدة ، او العكسيةاوالدورةالقصيرة ويستعمل فيها محلول قلوي بدلامنالمحلولالاسيدي ولا تحتاج الا الى بضع نقاط من الماء في العام ، وتشتغل في درجة حرارة واطئة تبلغ ٦٥ تحت الصفر بميزان فارنهايت ، كما انها تشتغل بدرجة حرارة عالية تبلغ ١٦٥ فوق الصفر .

وستستعمل هذه البطاريةفيالسياراتوالاجهزة الزراعية وجميع انواع الآلات ذات الاحتراق الداخلي ، كما تستعمل في عمليات السكك الحديدية واجهزة اعطاء الاشارات .

● استنبطت وزارة الزراعة الاميركية آلة جديدة لفتح القطن ونفشه وقد اثبتت انها ذات فائدة عملية محسوسة عظيمة فيصناعاتالانسجةفقد ركب اصحاب معامل الانسجة عدداً من هذه الآلات التي تجعل تنظيف القطن اسهلمنذي قبل والنفايات الناشئة عن عزل الانسجة القطنية اقل. فقد وفر احد المعامل دولارين في تصنيع كل بالة من القطن وتزن البالةزهاء ٢٢٥ كيلوغراماً من التيلة ، كما قال معمل آخر انه قد وفر زهاء ١٠٠٠ دولار في كل اسبوع بواسطة هذه الآلة كما وان جني القطن بواسطة الآلات قد انتشر انتشاراً واسعاً في الولايات المتحدة خلال السنوات القليلة الماضية . وقد نشأ عن ذلك ان اصبحتتيلة القطن تحتوي على (غلث) اكثر مما لو كان القطن يقطف باليد .

● تمكن المهندسون البريطانيون اخيراً من اختراع آلة حديثة للملاحة الجوية لمساعدة الطيارين . وهذه الالة عبارة عن خريطة تدار بالراديو ولها جهاز للتسجيل . ففي اثناء الفترةالتي يكون الطيار محلقاً فوق المنطقة التي تحددها الخريطة يقوم قلم متحرك بتسجيل موقع الطائرة. فاذا ما تجاوز الطيار تلك المنطقة توقف القلم عن العمل . اما جهاز التسجيل فيستمر في اداء مهمته حتى اذا ما عادت الطائرة ودخلت المنطقة المعينة فان القلم يبدأ عمله من جديد . فيعين المكان الذي تحلق الطائرة فوقه تماماً .

وهذا الاختراع الحديث الذي يضمه احدث طراز من طائرات « فلايت لوج » انما هو جهاز آلي ويعمل بصورة اوتوماتيكية تماماً فلا يضطر الطيار الى مسه على الاطلاق . وحالما يصل القلم الذي يتتبع مسير الطائرة الى طرف الخريطة ويتخطاه فانه يحتفظ بالحركات التي كان يجبان يقوم بها ولا يتحرك الا بعد ان يتمكن من ذلك او بمعنى آخر عندما ترجع الطائرة وتحلق ثانية فوق المنطقة التي تحددها الخريطة .

● اوجدتشركةفايرستونمزيجاً جديداًللمطاط يحميه من الهباب والدخان الكيماوي والعادي .

ويمزج هذا المستحضر مع المطاط عند صنعه فيحول دون تكوين طبقة على جوانبه او في الاجزاء الاخرى .

وقد اثبتت التجارب قبل الانانالهباب يسبب سرعة اهتراء الدواليب ، وقد ادت التجارب المذكورة الى اكتشاف المزيج المطاطي الجديد.

● ادلى الدكتور ميرفن كيلي«رئيس مختبرات شركة بل تلفون » بتصريح قال فيه انه يعتقد بان الكهرباء ستنتج تجاريا من الطاقة الذرية خلال عشر سنوات .



١ ـ هذه هي الصهيونية

لإسرائيل كوهين – قدم له البكباشي جمال عبد الناصر – ١٥٢ صفحة
من مجموعة اخترنا لك – باشراف اللجنة الثقافية لهيئة التحرير
منشورات دار المعارف بمصر

باشرت اللجنة الثقافية لهيئة التحرير في مصر باصدار سلسلة من كتب التثقيف السياسي ، تحت عنوان (اخترت لك) ، وقد استهلتها بكتاب « هذه هي الصهيونية .. لاسرائيل كوهين » .

والكتاب يستعرض تاريخ الحركة الصهيونية منذ ان كانت حلماً خيالياً الى ان اصبحت حقيقة دامية .. وهو مقسم الى الابواب التالية : قصة اسرائيل ، فترة التشريد ، حركة « احياء صهيون » ، هرتزل والصهيونية ، الصهيونية السياسية والعملية ، الاستعمار والصهيونية ، فلسطين تحت الانتداب الانكليزي ، اتساع نطاق الصهيونية وتدعيمها ، اقامة الوطن القومي اليهودي ، كيف توسعت الوكالة اليهودية ، ثورة العرب ، التقسيم في الكتاب الابيض ، الحرب العالمية الاخيرة ، وتعقيب .

ولما كان المؤلف من رجالات الاستعمار اليهودي فقد جاء كتابه دعاية للصهيونية ولقيام دولة اسرائيل ، لكنه توخى الدقة في عرض تاريخ الحركة الصهيونية واتصالها بالمشاريع الاستعمارية العالمية ، وبوسع القارىء ان يكوّن فكرة « تسلسلية » صحيحة عن هذه الحركة المفتعلة المأجورة .

ومن طريق ما ذكره المؤلف ان نابليون بونابرت قد وعد اليهود باعادتهم الى فلسطين اذا انضموا الى جيوشه الزاحفة على الهند ! ..

وان اللورد بيرون قال في احدى اغانيه : « ان للحمامة البيضاء عشاً صغيراً ، وللثعلب وكراً ، ولكل انسان وطنه ، الا اليهود فلهم القبور ! ..

وان دزرائيلي كتب في رواية (دافيد اكروا) بلسان احد ابطاله : « تسألينني عن اعز امنية عندي .. وجوابي : هي ارض الميعاد – وتسألينني عما يداعب احلامي ، فاقول : اورشليم .. وتسألينني عما يستهوي فؤادي ، فاقول : انه الكنيس ! .. » .

وهكذا يستشهد المؤلف باقوال المغامرين العالميين في دعم الحركة الصهيونية ، لكنه يتجاهل ما قاله غيرهم في هذا المضمار مثل شكسبير في (تاجر البندقية) وغيره وهم كثيرون .

ويذكر المؤلف على لسان المرحوم شكري ابي غانم تصريحاً مدسوساً عليه ، وهو انه قال في ١٣ فبراير سنة ١٩١٩ ، بوصفه رئيساً للوفد السوري ، انه يوافق على الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وان يقيم اليهود فيها حكماً ذاتياً على صورة اتحاد فدرالي مع سوريا ! ..

وهكذا يعمد الكاتب اليهودي الى حشد الكثير من المغالطات والدسائس المفضوحة بين المعلومات المتعلقة بتطور حركة لم تجلب سوى الاذى لمصالح سادتها ، والالام المبرحة للعرب .

لقد مهد البكباشي جمال الدين عبد الناصر ، سكرتير عام هيئة التحرير بكلمة وضح فيها القصد من نشر هذا الكتاب ، وهو احاطة العرب علماً بجميع مراحل الحركة الصهيونية لكي يكونوا على بينة من امرها .. ومع ذلك ففي رأيي ان الكتاب يحتاج الى نقد قوي . اما صورة الغلاف ، والصور الكاريكاتورية الاخرى فهي ضرورية لكنها لا تساعد القارىء على فهم الكثير من الحقائق .

٢ ـ فنون الادب العربي ـ المقامة

لشوقي ضيف – ١١٢ صفحة – منشورات دار المعارف بمصر

وفاجأتنا دار المعارف بسلسلة جديدة من مطبوعاتها الادبية بعنوان (فنون الادب العربي) ، يقصد منها دراسة فنون العرب كلها في الغناء والقصص والتمثيل والتعليم الخ .

والجديد في هذه السلسلة انها لا تعالج الفن بالنسبة للعصور كما ألفنا في كتب التاريخ الادبي ، ولكنها تعالجه مستقلاً قائماً بذاته .

اما المقامة في الادب العربي فقد بحثها الأديب المعروف

الاستاذ شوقي ضيف ، في الحلقة الاولى من مجموعة الفن القصصي وأفرد لها اربعة فصول ، وهي : معنى المقامة ، ونشأة المقامة عند بديع الزمان الهمذاني ، ومقامة الحريري ،ومقامات مختلفة بما فيها مقامات الشيخ ناصيف اليازجي .

ويحد الكاتب المقامة بقوله: انها حديث الشخص في المجلس سواء كان قائماً ام جالساً ، وبديع الزمان هو اول من اعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الادباء ، فكلمة مقامة عنده قريبة من المعنى من كلمة حديث ، وهو يصوغ هذا الحديث في شكل قصص قصيرة يتأنق في الفاظها واساليبها ويتخذ لقصصه جميعاً راويا واحداً هو عيسى بن هشام ، كما يتخذ لها بطلا واحداً هو ابو الفتح الاسكندري الذي يظهر في شكل شحاذ .

والمقامة ليست قصة بمدلولها العصري وانما هي حديث ادبي بليغ ، والموضوع فيه ليس اساساً ، وانما الاساس هو العرض الخارجي والحلية اللفظية ، لكنها مع ذلك كله لا تخلو في معظمها من ناحية معنوية ، او فكرة تنطوي على نقد المجتمع .

وكان لهذه المدرسة في الفن الادبي التي انشأها الهمذاني ان تركت اثراً عميقاً في الادب العربي قاطبة بل وتعدته الى الغرب ايضاً ؛ وفي رأينا ان سرفانتس سافدرا قد جعل لكتابه دون كيشوت راويا مثل عيسى بن هشام ، هو سيدي بن حامد الحجيلي . ولا يستبعد ان يكون دون كيشوت وسانشو بانشو وجهان لشخصية واحدة يمثلان دور الاديب الشحاذ الكبير ابو الفتح الاسكندري .

ويلي الهمذاني في فن المقامات ابو محمد القاسم الحريري ، واختار لها بطلا هو ابو زيد السروجي وراوية هو الحارث بن همام .. ثم جاءت مقامات السرقسطي واتخذ راويته فيها المنذر ابن حمام وجعل بطلها السائب بن تمام .. ثم مقامات الشهرزوري وراويتها القارس بن بسام المصري وبطلها ابو عمر التنوخي .. وظهرت فيما بعـــد مقامات كثيرة في مصر والعراق ولبنان واخرها مقامات الشيـخ ناصيف اليازجي ، الذي وضع ستين مقامة وراويته هو سهيل بن عباد ، وبطله هو ميمون بن حزام وهو ايضاً اديب شحاذ نابغة ! ..

فكتاب المقامة للاستاذ ضيف ممتع حقاً ، ويعطينا في مئة صفحة فكرة جلية عن فن المقامة في الادب العربي .. ونحن نقره بان المقامة ليست قصة ، لكن كتاب المقامات هم في الواقع رائدو القصة العربية ، بالرغم من « شعوذاتهم اللفظية » .

نجاتي صدقي

الآحاد او العالم الفتي

لجورج لينز – باللغة الفرنسية – ١٧٥ صفحة – منشورات « لارنيسانس دي ليفر » في بروكسل

Les Dimanches ou Le Monde est Jeune
Georges Linze — Roman 175 p. — Editions
La Renaissance du Livre — Bruxelles

كتاب ليس برواية ، كما يقول المؤلف ، ولكن فيه سلاسة الرواية قائمة في لوحات ، حيث يحيا ابطـــال العشرين ربيعاً .

كتاب فيه بحق ما يحمل على النظر ، مع صاحبه ، في انطلاقة الصبا المشتملة على يُعرف فيُدرس ولكنه لا يضبط .

كتاب تخالط الفكر صوره فترى فيه سذاجة الفلسفة نازلة الى اعماق الانسان الناشيء ترسمه في كل ما يصدر عنه وما يجيش في ذاته كأنها آلة تصوير خاطفة الرسوم ، بطلاها « دي » و« روجر » * .

ولكي لا يسيء التعريف المقتضب الى قيمة هــذا المؤلف النفيس استعين ببعض مقدمة صاحبه مترجمة في ما يلي :

« كل جيل يفهم العالم على طريقته الخاصة ؛ ونحن في الحياة هكذا ! كل من يحوطنا فهو على شاكلتنا ؛ او على الاقل نحن نعتقد ذلك . ولكن بين الحداثة وسن الرشد حقولاً مجهولة ؛ بعضها لاهب ، كأنه رمال متحركة مليئة بالاخطار حافلة علامة المغامرات والاحلام والأهواء .

هو الصبا الذي تحمله غالباً ، امواج عاطفية يقتتل فيهـــا الماضي والحاضر وتزدهر البراءة والاخوة ويمرع تذوق الجراة الى جانب تذوّق العمه والسرور .

والصبا هو المرحلة الشاذة عن نطاق العمر ، كما لو ان الزمن لا يستطيع لحاقاً بها ، وكأن فيها طعم الخلود .

وبعد انقضائها تتكشف الحياة عن وجه آخر كما لو كانت تستفيق فجاة بعد إشتاء ، فينظر مغادر الصبا الى نفسه بدهشة ويتحقق وجوده قائلًا :

« ها أناذا أحيا .. لم أعد ميتاً .»

كل شيء انتهى تماماً والسرحة المسحورة غابت الى الأبد . »

وبعد المقدمة نمر بلمحة من هذا الكتاب ابتداء من الصفحة المئة والاربعين .

« ليست حياة الأحداث ساذجة كما هو الاعتقاد المألوف ؛

* « دي » اسم الصبية القلقة الذي اختاره المؤلف. روجر اسم اسطوري للفتى المارح اراده المؤلف اسماً لفتى امال دي واحلامها.

ففيها غالباً تأمّلات تتوثق بالمخلوق البشري فتعطيه معناه؛ لان السعادة والتعاسة كائنتان فيه مثلهما في البالغ رشده .

وكثيراً مـا تهب عواصف حقيقية ، في نفوس الفتيات الصغيرات ، البادئات في ائتلاف المظاهر والموقتات بما سيصلن اليه ، وكانّ تلك العواصف رياح فكرية تجتاحهن .

وهـذا ما لا يشك فيه احـد وما لا يعلم عنه احدٌ شيئاً . فهن يتكلمن ويعملن ، ومع ذلك فالزوبعة الداخلية مستمرة؛ وبتأثير عصفها يصبح العالم مائجاً كالبحر ، فكل ما يشتمل عليه كيانهن يضطرب ويتحرك ويندفع في كل سبيـل ، والفتيات الصغيرات تتقاذفهن الأمواج الخفيـة فيصطدمن بألف قوة تتسرب اليهن وتحدث فيهن جوعاً للحيـاة عظيماً ، وتفاجىء احشاءهن بمعدة جبارة تتفتح فيها .

فيا لها من أزمة جديرة بالانتباه ! ففيها دنيا تحترق، ألسنتها اللافحة تتراقص في أعماق النفس فتجعلها طعمة لحرهـا ! فلنتنبه للخير ! ولنتنبه للشر ! فكلاهما يؤديان الى الضلال .

هذا عمر المفاجآت العجيبة ، عمر المهاوي المذعرة والاعمال التي لا مفر منها والتصميمات المرتجلة ، عمر البهجة واليأس الذي لا مبرر له ، عمر تندفع فيه النفس بكليتها الى السماء كما تندفع الى الجحيم .

عندئذ تسير الفتاة الصغيرة سيراً جنونياً ساعات طويلة كالو كان ذلك السير ينتهي بها الى غاية افكارها ، وتبقى ببقاء هذا الحدث الطبيعي ، الذي يجتاحها بقوة ، متجولة في المدينة وهي تكاد لا تُرى ، وعندما تعترض مسيرها صور العالم الحقيقي تتغير تغيراً تبدو معه خارجة عن نطاق الانسانية ، والمعقول .

وتدخل «دي» غالباً في هذا النفق الطويل في الشك وفقدان الضمير. وعندئذ يمر بها «روجر» مروراً في حلم خاطف» فيراها ضالة مستوحدة تلتمس ذاتها ، فتكتنفها بعض النهارات بأخطار تخصها بها ، فتنطوي على نفسها متذمرة آسفة لان روجر ،او سواه لا يتراءى لها باسطاً نحوها يد الشفاء . ولكن لو فكرنا ان نسأل الفتاة : « اتحبين روجر ، صاحبك ؟ » لاستطعنا ان نشك في جوابها بالايجاب ولكنها مع ذلك تناديه وترضى ان يجيب آخر على ندائها بدلاً منه . وهذا المجيب الآخر ليس الا ظلا خلقته الفتاة على هواها ، هذا المجيب ليس الا شبحاً مشتهى وكل ذلك ناتج عن اضطراب؛ اضطراب يعسر التعبير عنـه ؛ اضطراب تصعب قيادته كما لو كنا نريد ان نأخذ بين ايدينا ألسنة اللهيب او كنا نحب ان ندفع بها امواج البحر .

فاذا أردت ايتها الفتاة ، رأي رجل جاز عمره ، فسيكون هذا الرأي خاتمة عظتي ، واعلمي ان تلك العوامل الجائشة ستختفي على مهل كاختفاء الغريق ، وعندئذ تتنبهين معتقدة ان الحياة الحقيقية تبتدىء ، ولكنك ، يا للاسف ، لن يبقى لـك الصبا ولن تكون لك احلام ولا عواصف ولا أخطار عظيمة مجهولة .

هدوؤك سيكون متواصلاً وستنظرين ، آسفة ، من حين الى آخر ، الى المرأة الهائمـة التي كـنتها في ايام اضطرابـك ، فأتساءل ، ولكن تساؤلي يتناولني وحدي ، عما اذا كان ذلك الصخب وتلك الفوضى اللذان يسيطران علينا غالباً ليسا انعكاساً لأمراض خطرة تنتاب حماها مدننا ؟ !

دي « Dé » رحلت تاركة بيتها وهي في شبه رعب ولا تريد ان ترى احداً، فهي تهرب منطلقة نحو شيء راسخ لا يحدد.

هـا هي عـلى الجادة المظللة ، حيث تصطف خلايا الباعـة المتجولين . وهي هنا ، كما في غير مكان تبدي اشارة سخرية صغيرة وتهز كتفيها عندما ترتفـع اصوات المغالين في عرض بضائعهم او عندما تسمع ألحانهم العامية .

هناك متقاتلون يلعبون « بالسيف والترس » فتقف فجـأة راغبة في مشاهدتهم. واصغر المشاهدين سناً يبدو بينهم متورد الوجه كأنه الشبح الذي تحلم به ، شبح المحبوب فى الخاطرة ، فتنظر الى اعصابه متمثلة جسده شهياً نظيفاً ، ثم تبتعد فجـأة كأنها أصيبت بنوبة قلبية ، متمتمة أواه !

ماذا هناك يا « دي » ؟ ولماذا تركت روجر بعيداً عن فكرك ؟

ولكن بمَ تريدون ان تجيب ، وما طرأ عليها خارجٌ عن سلطان ارادتها ؟

هي تعمل ولكن في نفسها قيادات آمرة وليس لها الا أن تنصاع سلسلة الانقياد .

وعالم سوق البيع هذا ليس اكثر غرابة من العالم العادي ؛ ففي بعض انحائه يطلقون عيارات بنادق ، ولكن ضحاياهـا ليست سوى غلايين تدخين و و و . . . نعم السوق هذه ليست على ضخامتها غير امتداد مضوط للمدينة في سماء حداثة وجنون فكأن فيها كل شيء . »

ولا يفرغ القارىء من هذا الكتاب ، ان هو لان للوحات التأمل الدقيقة يتفهمها ، إلا وقد لاح له ان مثل هذا الادب

الجامع للذة التصوير الروائي والتجليات النفسية حري بالاقبال عليه واستقراء لوحاته ؛ فهي تموج حي لاستعراض بكر الاسلوب ان لم يكن بكر الغاية .

نسيم نصر

تيه ونور

لمثيل موسى سنداحة – شعر طلق – حجم صغير – ٩٠ صفحة – طبع على مطبعة كرم بالقدس

صدر قبل هذا العام بقليل كتاب تيه ونور ، وهو يحتوي على اربع وأربعين قصيدة من الشعر الطلق . وقد أهداه مؤلفه : الى قديسة ، الى كافرة ، الى بريئة ، الى خائنة ، مقدماً احساساته العميقة ، وعواطفه الجياشة لهم .. وهذا الكتاب هو باكورة شاعريته .

المتصفح للكتاب يجد نفسه امام مشاهد مختلفة من الوصف ، وتيارات من العواطف الكامنة والاحساسات الهائمة .. حيناً ينصت الى حنينه الدافئ في سكون وهو يناجي طبيعة وطنه والزهر والنسيم ويمتزج بها ، فتشعر برقة عاطفته وصدق انفعالاته لانها مستوحاة من الطبيعة ذاتها ، وقد اعطاها من قلبه وصبغها بدمه . وفي هذا المعنى قـال بيرون : « الفن هو مزيج من الانسان والطبيعة » ، وحيناً تقف امام مجد صارخ ووطنية عارمة . فهو ما زال فتى يتدفق حيوية ونشاطاً ، وانساناً واقعياً قبل كل شيء : يحب ويكره ، يشقى ويسعد ، يثور ويهدأ .

واذا تأملنا قصائده العاطفية امثال : أمي ، اليك وطني ، تسامح رقيق ، سؤال حبيب ، ابي ، همسة ، رأينا كلامها سهلاً حلو المذاق موسيقي النغم . واليك جزءاً من قصيدة « أمي » .

نور حياتي في الوجود ، اله ، اوجد الوجود ، وام ، سهرت الليالي على حياتي ، نبراس الهدى والسلام ، يهديني الى خير سبيل ، يشع من قلب حنون ، من قلب أمي الكبير ، أمي ، أم الحنان ، والعطف والسلام ، وطهـارة الوجدان ، أمي .

اما من الناحية الوطنية فيتكلم بلغة الحديد ، ويقف خطيباً يقذف الحمم ، ويوقظ الهمم ، ويؤجج النقمة في الصدور ، فهو فرد من امة كبيرة شردها الاستعمار البغيض ، وعضها الزمن بنابه . فيقول « لمن يسمع » :

حطم السدود ، اكسر القيود ، لا تعش سجيناً ، لا تكن من العبيد ، كفى نير كفى استعباد .

ويبلغ سمت وطنيته الرائعة ورجولته الفائقة في تحديه الصعاب والنوائب فيقول من قصيدة (تحدي) وهو المؤمن بكفاحه ، المخلص في وطنيته ، الموقن : لا بد للقيد ان ينكسر !!

اعصفي يا صعاب ، امطري الآلام والعذاب ، واسقني العلقم المركز ، وسمي الجسم بوخز النبال ، انك لن تؤثري على الرجال .

ثم يقول :

اعصفي يا صعاب ، شددي ، سددي الضربات ، اظلمي كيفما شئت شبابي ، انني لن اهاب ، انني سأصل الى المراد ..

فهو عنيد جبار ، يشق طريقه الى الرواسي رغم ما تكتنفه من صعوبات ، بهمة لا تكل وعزم لا يقل ؛ دائب الحركة ، رابط الجأش ، لا يرهب الموت في سبيل تحقيق هدفه الأعلى . فهو كذلك عزيز النفس أبيُّها ، محافظ على قدسيتها وكرامتها ، لا يرضى ابداً ان يلوثها بابة شائبة مهما كان الثمن غالياً ، شأن كل حر كريم يؤثر المنية على الدنية .

ثم لا بد من الاشارة الى نزعته الانسانية التي فطر عليها منذ الصغر ، انه يحب البشرية جمعاء ، ويدافع عنها ما استطاع جهده ويكره الحرب والفساد ويتمنى ان تسود الطمأنينة والصلاح . كما انه يكره المتكبرين الذين يشمخون بانوفهم في الهواء ، وقد تناسوا او نسوا وهم في غمرة من غطرستهم او جهلهم انهم من التراب واليه راجعون !

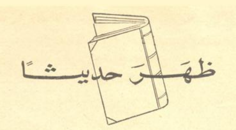
وبعد ذلك يتمنى الشاعر في (دنيا حيـاة) حياة تخلو من الاستعباد والعبودية ، والمكر والدهاء ، والمستبدين الطغاة ، عالم تسوده الفضيلة والحرية ويرفرف عليه لواء الاخـلاص والاخاء والحق فيقول :

اذا عشت والطفل يرضع الحرية مع الحليب ، وينشأ خيراً للقريب والبعيد ، ويغرد لحن الاخاء ويكون مثاله ، ويخلص وفاء لمجتمع انساني باعماله ، اكون قد عشت في دنيا حياة .

اذا عشت والحق يعلو الجميع ، وفي سبيله يجاهد الكبير والصغير ، وليس انسان نبراسه الباطل او الدليل ، فالحرية والحق اجتمعا خير سبيل ، اكون قد عشت في دنيا حياة .

وقبل ان انتهي من هذه الدراسة اود ان اشير الى بعض قصائده التشاؤمية ذات الحيرة الواسعة التي كادت تطغى على وطنيته وتحديه الرائعين وهي (أمل ضائـع) و (من انا) و (الانطلاق بالاحتراق) و (عذاب اليم) .. وثم ملاحظة جديرة بالعناية وهي انه في بعض قصائده يبلـغ تحليقه الشعري Climax ثم لا يلبث ان يسف Anticlimax فتتلاشى الانعكاسات ويذهب بهاء التحليق الشعري كما في قصيدة (عزة) .

اما ملاحظتي الاخيرة فهي استعماله بعض الجمل العامية مثل : ان فكري يعمل لحسابك (ص ٩) مع ان له سابق اختبـار



التطور الاجتماعي والاصلاح الزراعي في الشرق الاوسط

International Social Science Bulletin

عدد خاص من المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية – منشورات اليونسكو باللغة الفرنسية – ١٩٨ صفحة – مطبعة كريتيه بفرنسا

يذكرنا عالم الشرق اليوم ببطل قصة اوليفر تويست، « لم نمثله مثل جاليفر ، يضع احدى قدميه على ضفةالعصور الوسطى والأخرى على ضفة عصر الذرة » .

بهذه الكلمات اختتم المونسنيور يوحنا مارون، عضو مجلس اليونسكو التنفيذي، المقدمة التي استهل بها عدداً خاصاًبالشرق الأوسط من « المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية » (الجزء الرابع من المجلد الخامس ١٩٥٣) . وقد تناول هذا العدد مجموعة من الدراسات عن مختلف مظـــاهر التطور الاجتماعي والاصلاح الزراعي في تلك المنطقة .

والشرق الأوسط اليوم مسرح « لفوران » اجتماعي له عوامله الكثيرة المعقدة ، ومن أهمها تلك المشكلة الأزلية : مشكلة الفقر والمرض. وقد أذكى من لهب هذه المشاكل جميعاً اتصال سكان هذه المنطقة بأهل الغرب الذين يتمتعون بمستوى من الحياة أعلى. فنرى الروابط العائلية التقليدية تهدد بالانفصام ونظام الأبوة يفقد الكثير من سلطانه، والمرأة تطالب بمساواتها بالرجل في الحقوق السياسية والاجتماعية. وهناك من كل طرف يقظة في الشعور الوطني ، وتوق دائب نحو الأهداف القومية .

وأما حركة الاصلاح الزراعي فقد أصبحت « مشكلة الساعة » في هذه البلاد التي يعتمد ٨٦ ٪ من سكانها على الأرض، وحيث يوجد ٧٥ ٪ من مجموع فلاحيها يزرعون أرضاً لا يمتلكونها . أضف الى كل هـذا تطوراً صناعياً عميقاً يدفـع الى التوسع في المدن والى خلق طبقة من العمال الصناعيين .

ويرى قادة الفكر والسياسة في الشرق الأوسط أن هذا « التغير » حقيقة واقعة ، ولكن النتائج التي أدى اليها هـــذا التغير قد جعلت منهم فريقين ، يذهب الأول الى أن مستقبل الشرق الأوسط رهن بعودة القيم التقليدية دون أن يؤثر ذلك في تحقيق برامج الاصلاح الزراعي ، ويحبـــذ الثاني التغيرات « الأساسية » المستوحاة من تجربة الخارج .

كل هذه المذاهب تعرضها مقالات هـذا العدد الخاص من المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، فنطالع للاستاذ سعيد حمادة ، الاستاذ بالجامعة الامريكية ببيروت مقالاً يتناول المشكلة بوجه عام تحت عنوان : « اليقظة الاجتماعية والتطور الاقتصادي في الشرق الأوسط » . ونقرأ للأستاذ كاظم الداغستاني ، المدير العام السابق للاحصاءات الحيوية في الجمهورية السورية ، مقالاً بعنوان « تطور العائلة الاسلامية في بلاد الشرق الأوسط » . أما الاستاذ سيد عبداللطيف ،مدير اكاديمية الدراسات الاسلامية في حيدر آباد ، فيناقش مشكلة «الاسلام والتغير الاجتماعي».

ويتضمن هذا العدد الخاص ايضاًثلاث مقالات تعالج الاصلاح الزراعي ، احداها دراسة عامة بقلم الاستاذ حسين فهمي،عضو « المجلس الدائم لتطور الانتاج القومي » بالقاهرة والثانية بقلم الاستاذ حسن محمد علي ، رئيس « لجنة اعمار واستثمار الاراضي الاميرية الصرفة » ببغداد ، عن « اعمـــار واستثمار الاراضي الاميرية الصرفة في العراق » والمقالة الثالثة كتبها الاستاذ سيسل حوراني بالجامعة الامريكية ببيروت ، وقد وصف فيه «المشروع الانشائي العربي بأريحا بالاردن » .

ويتضمن هذا العدد الخاص الى جانب هذه الدراسات الهامة مقالات عن نشاط الجامعات ، وعلى الاخص جامعة الأزهر المشهورة بالقاهرة ، ومعاهد البحث الاقليمية ، كالادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ومركز التعليم الاحصائي الدولي ببيروت ويشمل العدد ايضاً مجموعة من المراجع الخاصة بالشرق الاوسط الى جانب تقرير لحلقة العلوم الاجتماعية الدولية التي عقدت برعاية

(ص ٣٥) ، مع اني احمل خارطة (ص ٣٧) واخلـع رقبته (ص ٥١) .

ومهما يكن من هذه الملاحظات الطفيفة فان هذا الكتاب يعتبر خطوة جيدة لشاعرية متحررة تريد الانطلاق ، وآمل ان تتلوها خطوات اخرى اوسع وأشد ، وهو ما زال الفتى الغض الأهاب الجديد الشباب .

الظهران ـ السعودية — **خليل ابراهيم النعمة**

اليونسكو في اثينا ، وكان موضوع دراستها : تطور النظم الاجتماعية والقانونية في الشرقين الادنى والاوسط نتيجة للتطور الصناعي .

● هند أم معاوية - لاحمد ابو سعد - مسرحية شعرية تاريخية ذات ثلاثة فصول - ٧٨ صفحة السلسلة المسرحية - مكتبة صادر بيروت .

● ابو علي بن سينا - نبذ من حياته السياسية - بقلم رحيم زادة صفوي استاذ الادب الفارسي في جامعة طهران - ترجمه عن الفارسية علي البصري - نظر فيه و كتب حواشيه ورد بعض الاوهام محمود الملاح - ٨٢صفحة -دار منشورات البصري بغداد.

● افق - مجموعة شعرية - لمحمد العربي صمادح - ٦٤ صفحة - طبع الشركة التونسية بتونس .

● الشاطىء المهجور - مجموعة شعرية - لعزيز اندراوس - ١٣٦ صفحة - مزينة بالرسوم - دار مصر للطباعة بالقاهرة.

● اناهيد - قصة طويلة - لعبدالله نيازي - ٩٦ صفحة - مطبعة دار المعرفة ببغداد .

● نذير العاصفة - لمكسيم جوركي - ترجمة سعد توفيق - ١٦٦ صفحة - دار النشر المصرية بالقاهرة .

● حدث ذات ليلة - مجموعة قصص - لمحمود البدوي - ١٣٦ صفحة - دار مصر للطباعة بالقاهرة .

● هذه هي الوجودية - تأليف بول فولكييه - ترجمة محمد عيتاني - ١٨٠ صفحة - دار بيروت للطباعة والنشر بيروت .

● مخلوقات كانت رجالاً - لمكسيم جوركي - ترجمة سعد توفيق - ١٣٢ صفحة - حجم كبير - دار النشر الجامعية بالقاهرة .

● مناظرة لغوية ادبية - بين الاساتذه عبد الله البستاني عضو المجمع العلمي وصاحب معجم البستان وعبد القادر المغربي رئيس المجمع العلمي العربي السابق وعضو مجمع اللغة الملكي انستاس الكرملي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق - نشر مكتبة القدسي لصاحبها حسام الدين القدسي بالقاهرة .

● تاريخ التربية الاسلامية - وضعه بالانجليزية وترجمه الى العربية الدكتور احمد شلبي دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبردج ومدرس تاريخ الحضارة الاسلامية بجامعة القاهرة - اعتمدت جامعة كمبردج هذه الدراسة لدرجة الدكتوراه في الفلسفة وقررت جامعة القاهرة طبعها على نفقتها - ٤٤٨ صفحة - حجم كبير - دار الكشاف ببيروت

● العائلة والحياة - للاب اغناطيوس غطاس المخلصي - ٨٧ صفحة - حجم صغير - هدية مجلة الرسالة المخلصية بصيدا لبنان

● الدموع الضاحكة - مجموعة شعرية - لعبدالله هادي سبيت - ٣٠٣ صفحة - منشورات دار الجنوب للطباعة والنشر بعدن

● في سبيل البعث - امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة - لميشيل عفلق - ٩٩ صفحة - منشورات حزب البعث العربي بدمشق

● نبضات - مجموعة شعرية - لجورج صيدح - ٤٠ صفحة - حجم كبير - مع ثمانية رسوم مستقلة بريشة الفنان العراقي جميل حمودي - مطبوعات دار الفكر الحديث بباريس

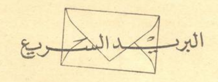
● علمني الحياة - باقلام نخبة من الشرق والغرب - اشرف عليه الدكتور احمد امين - ١٩٤ صفحة - حجم صغير - نشرته مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر القاهرة نيويورك - صدر في سلسلة « كتاب الهلال » الشهرية دار الهلال بالقاهرة .

● المسيحية في القدس - لعارف العارف - ٢٦١ صفحة - مطبعة دير الروم الارثوذكس بالقدس .

● هذا هو العراق - اراء في السياسة والمعارضة والاحزاب وحقائق عن المجتمع العراقي والشباب والفتيات - لعبد الكريم ابو التمن - ١٦٠ صفحة - مطابع دار الكشاف بيروت

● اغاني تموز - مجموعة شعرية - لفقيد الادب فؤاد سليمان - مع مقدمة بقلم موسى سليمان - ٩٨ صفحة - ورق فاخر واخراج انيق - طبع في دار الاحد ببيروت .

● مع التاريخ العاملي - لعلي الزين - ٢٠٧ صفحة - مطبعة العرفان بصيدا



● الى الادباء والكتاب والباحثين .

نعيد هنا نشر ما سبق ان نشرناه للتذكير :

– تلفت الاديب حسن انتباهكم الى انها تعتذر عن نشر المقالات او القصص الطويلة فكل موضوع تجاوز خمس صفحات يتأخر نشره . وتكون أفضلية النشر غالباً المقالات القصيرة فالقراء قد اجمعوا على هذا الطلب.

– الاديب منتشرة في جميع اقطار العالم اي انها تدخل الى مناطق مختلفة من حيث اسلوب الحكم كما ان بين قرائها آنسات وسيدات وطلبة الى اخره لذلك نرجو ملاحظة هذه الناحية المهمة فليس كل ما يكتب نستطيع نشره . ونحن لا نستطيع تعريض الاديب لخسائر مادية ندفعها نحن ارضاءاً لتمسك كاتب بموضوع او بفكرة او بجملة واحياناً تمسكه بكلمة .

فنحن بعد في محيط لا يسمح لنا بحرية التناول الموضوعي الخالص مثلما لا يسمح لنا بالحرية السياسية وذلك على الرغم من جميع الترهات والادعاءات والمظاهر الكاذبة .

ولهذا تحاول الاديب اولا وقبل كل شيء المساهمة في خلق جيل عربي متحرر واع ، وهي في رسالتها تدعو الشبيبة الطالعة الى التكتل وتنظيم العمل لنفوز بالانعتاق من المساوىء التي ابقيناها من تراثنا الماضي ، هذا التراث الذي تركنا كل ما فيه من جمال وابداع وروعة وتحرر ومثالية وخير وتمسكنا بكل ما فيه من انحطاط ، تماماً كما فعلنا بالحضارة الغربية ، تركنا محاسنها واخذنا مفاسدها .

– اما شروط النشر في الاديب فهي ان يتساءل الكاتب قبل ان يسرع بارسال موضوعه الينا هل فيه شيء من الابتكار ام انه موضوع كتب فيه مراراً فلم يأت بالجديد ؟

– ثم رجاء الى هؤلاء الذين يعتقدون بان الواجب يقضي عليهم كلما خطر لهم خاطر ودارت برأسهم فكرة ان يخرجوها قصة ، او موضوعاً اوقصيدة ويسرعوا بأرسالها الى الاديب دون سواها ... الى هؤلاء نقول رفقاً بالاديب ، فليس كل ما يكتب يصلح للنشر في مجلة شهرية حتى الذي يصلح للنشر في المجلات الدورية او الصحف اليومية او الكتب او الذي يلقى كمحاضرة او حديث في الاذاعة ...

– يجب ان يتساءل الكاتب او الشاعر ما فائدة القراء مما سأنشره عليهم في الاديب ؟ هل من متعة روحية او فنية ، او فائدة علمية او اجتماعية او أدبية او توجيهية او غيرها ... يستفيدون منها ؟

– اما الذي يشترك في الاديب اعتقاداً منه بأن ذلك وسيلة للنشر فيها فهو واهم ..

– الاديب يجب ان ينصرف انصرافاً تاماً الى الادب فهذا العصر لايقنع بأن يكون الاديب ملماً الماماً بما يكتب ويبحث . لذلك لن يلمع بعد الان في الشرق العربي أديب لا يكون واسع الثقافة عميقها وان يكون ايضاً صاحب اختصاص .

– والاديب لا يمكن ان يستغني عن دراسة الادب العربي في جميع عصوره وان يستفيد ايضاً من الاداب الاجنبية . فالاديب الغربي لا يمكن ان يكون اديباً ما لم يكن قد انهى دراسة الادب القديم وتاريخ اداب اللغة التي يكتب فيها مع المام وافر بالادب العالمي . وهذا ما يجب ان يكون عندنا ايضاً .

– لا تستطيع الاديب ان تنشر كل ما يردها حتى لو كان يصلح للنشر فيها فهي تصدر مرة في الشهر ويردها شهرياً اكثر من ثلاثين قصة وسبعين قصيدة وعشرين موضوعاً وبحثاً ، نصفها على الاقل يصلح للنشر ، وازمة الورق وغلاء اجور الطباعة وغير ذلك لا يسمح لنا بمضاعفة صفحات المجلة لزيادة امكانية النشر ، فنرجو المعذرة .

– ثم يلاحظ ان اكثر الشعراء وكتاب القصة يتجلى « الكبت الجنسي » في اكثر ما يرسلونه للنشر .

فالشاعر لا يرى من المرأة غير نهديها وفخذيها والفراش الوثير، وكاتب القصة يمعن في وصف كيفية التعبير عن اشواقه الجنسية نحو المرأة وعن كيفية تمتعه بها ... فالمرأة في القصة « متعة » لبطلها ...

هذا « الكبت » الجنسي والسياسي والاجتماعي الخ ... مصيبة الشرق العربي يتجلى للاسف في اكثر ما يكتبه الكتاب . لذلك نرجو ملاحظة هذه القضية الهامة .

– ثم نعتذر بانه ليس بوسعنا الرد على الرسائل التي يطلب اصحابها ان نذكر لهم الاسباب التي جعلتنا لا ننشر ما تفضلوا بارساله الينا فما نهمله يعني اننا لا نستطيع نشره لسبب ما فلا داعي للالحاح في طلب النشر ، وليس في وسعنا اعادة ما لم ينشر ، كما نرجو عدم الالحاح في طلب النشر حتى لا نحرج ونضطر احياناً لصالح المجلة – يا للاسف – ان ننشر اشياء تافهة ! !..

– اعلنت الاديب منذ صدورها تخصصها بنشر الادب الحديث وفتح الابواب امام الادباء الشباب الذين خنقت حناجرهم وكسرت اقلامهم المفاهيم المغلوطة بان الفكر وقف على من « اشتهر » من الكتاب ، نحن نهتم بالانتاج ولا نهتم بالاسماء . ولولا ذلك لما تيسر لكثير من الادباء الذين شقوا طريقهم في الاديب ان يصيروا من « المشهورين » ...

– الاديب تهتم بالفكر والعلم قبل اي شيء اخر وهي لا تقيم وزناً للمدرسة البلاغية ، اقصد التي تعتمد البلاغة وتترك الفكر ، فالاديب كما اعلنت عنها يوم صدورها حتى الآن « لسان حال الجيل العربي الواعي » تهدف الى تحرير الادب من قيوده وجموده لينطلق الفكر والعلم فنحن بحاجة اليهما للنهوض بمجتمعنا وبامتنا حتى لا تتخلف عن ركب الحضارة .

– نرجو من كتاب القصة عدم الاسراف في استعمال لغة التخاطب العامية في قصصهم ، مما يجعلها ذات طابع اقليمي لا فائدة منها لقرائنا في سائر الاقطار .

– نرجو مراسلينا في تونس والجزائر ومراكش ان يبعثوا بمقالاتهم مكتوبة على الآلة الكاتبة لانه يتعذر على العمال المكلفين « بالصف » قراءة المقالات المكتوبة بالخط المغربي مما يؤدي غالباً الى اهمال نشرها .

– نرجو عدم ارسال المقالات والقصائد بالبريد المسجل . كما نرجو وضع اوراق بريدية بكامل القيمة المتوجبة وكل رسالة تكون اجرة بريدها ناقصة سنرفض تسلمها .

— بقية المنشور في صفحة ١٢ —

*

معهم تعاطفاً غير تام . ولكن ربما كان هذا القصور — ربما كان عجز تشيخوف عن ان يمنح مخلوقاته تلك النبضة الخفاقة من الطبيعة التي تكسب هذه الشخصية حياة تفترق بها عن تلك — هو السبب في تميزه وتفرده . ان شخصياته كالظلال بل ليس لها تلك الحدود الخارجية التي للظل بل هي كالبخار المتصاعد عن سطح البحيرة قبيل المساء والذي يتلاشى وجوده في عتمة الغروب ومع انها ينقصها التمييز المرهف الدقيق لحدود الشخصية فان فيها انسانية خفاقة راعشة ؛ وارجو المعذرة ان لم استطع ان اعبر عما اريده بوضوح حين اقول : انها تؤثر فيّ "كأناسي" اكثر مما تؤثر فيّ كأشخاص فكل واحد فيها كأنه جزء من واحد آخر والالم الذي يحدثه احدها للآخر مؤلم لانه يحدثه لنفسه ، وبما انها كالظلال فانها تظل سراً ، نفهمها فهماً غائماً مثلما نفهم انفسنا . ومن ثم يصل تشيخوف الى الغاية التي هي اقصى ما يبلغه كاتب قصص — يملؤنا شعوراً جارفاً بسر الحياة ، وقدرته على ذلك هي التي تجعله في رأيي كاتباً فذاً بين القصصيين ، وتلك هي القدرة التي تمنح القصة قواماً ولولاها لكانت بلا قوام ، وتهب للشخصيات قيمة وهي تبدو في الظاهر بلا قيمة .

وحين تستدير احدى قصص تشيخوف كاملة ، فانها تتحكم شعوراً بواقعيتها وهو أمر تكاد قصص موباسان — على احسن حالاتها — تعجز عن تأديته لان الاطار الذي سكبها فيه موباسان يمنعكم من الاستئثار الكامل لها ، ويظل يكمن في احدى زوايا اللاوعي من نفوسكم ، شعور يحدثكم بأن ما تقرأونه هو في آخر الامر خيال لا حقيقة . وقد ذكرت قبل قليل ان تشيخوف أثر في الكتّاب الذين جاءوا بعده ، ففي احسن الاقاصيص الحديثة يستولي عليكم احساس بالواقعية لم يقدر احد من قبل على تأديته بمثل هذه الدقة حتى لتقولون عندما تقرأونها : هكذا تحدث الامور تماماً ، ونحن نؤمن بهؤلاء الناس ، ونعرف مناظر الشوارع التي يمشون فيها ، ونميز رائحة بيوتهم . ولكن الحال في القصة كالحال في الحياة — قلما يتيسر لنا شيء الا بتضحية شيء آخر . وكثيراً ما خيل إليّ أن الذين اقتفوا خطوات تشيخوف حتى يحققوا ما حققوه فعلاً ، كان عليهم ان يضحوا بما يعد احياناً اعظم ما يملكه القاص وذلك هو اللهفة التي يثيرها فيكم لتتعرفوا كيف تسير الامور الى نهايتها . فهؤلاء القصاصون يمتعون القراء بل واحياناً يثيرون فيهم الميل الى التفكير ولكنهم لا يهزون المشاعر ، ويظل الدم يجري هادئاً في عروق القارىء فلا يلتهم الصفحات كالمنهوم ليستكشف ما سيتم بعد . وهؤلاء القصاصون ايضاً يحتفلون قليلاً بالعقدة القصصية ، ومن ثم فانهم على خير احوالهم حين يوجزون في قصصهم ، وحالما تطول القصة فانهم يصبحون في حاجة الى عقدة ليستمر لقصصهم شيء من الانسجام . وهم يحذفون قسطاً وافراً لا بد للكاتب ان يقوله في بدء قصته ليوضح الأحداث التي تجيء ، كما انهم في نهاية القصة يتركون الامور معلقة في الهواء ، وعلى القارىء ان يجيب بنفسه على كل سؤال يثور في نفسه ، ولما كانوا يحذون حذو تشيخوف حتى فيما جانب فيه الصواب فانهم يتوارون حياءً من إظهار العنصر الروائي والمفاجأة . لقد قال تشيخوف مثلاً : ان الناس لا يذهبون الى القطب الشمالي ويقعون عن جبال الجليد ، وانما يذهبون الى مكاتبهم ويتشاجرون مع زوجاتهم ويحتسون حساء الكرنب . ولكن الناس في واقع الامر يذهبون الى القطب الشمالي فان لم يسقطوا عن جبال الجليد فانهم يواجهون مخاطر كهذه عنفاً وشدة ، وليس في العالم من سبب يحول دون كتابة قصة جيدة عنهم . ومن الواضح انه لا يكفي ان يذهب الناس الى مكاتبهم او أن يتناولوا حساء الكرنب بل ولم يفكر تشيخوف نفسه ان هذا وحده كاف لتصوير الحياة . فمن اجل ان ينشىء هؤلاء الكتاب قصة قصيرة يحدثون سرقة للمبالغ الصغيرة المحفوظة في المكاتب ، ويجعلون الأزواج يقتلون زوجاتهم او يضربونهن — على الاقل — فاذا ذكروا حساء الكرنب قدّروا له سراً ومغزى ، كأن يتخذوه مثلاً رمزاً للرضى بحياة بيتية هادئة سعيدة او رمزاً لأمل معذب لم يبلغ صاحبه تلك الحياة . ولكن شرب هذا النوع من الحساء بهذا المعنى يصبح غير مألوف ايضاً كالوقوع عن جبل من الجليد . واحب ان اذكركم بأن تشيخوف نفسه — مهما تكن مبادئه — لم يكن يتردد في الخروج على المألوف والواقع اذا كان ذلك بما يتفق وغايته . ولعلكم دون ريب تذكرون تلك القصة الرائعة المريرة قصة «الراهب الأسود» ففي هذه القصة يعاني استاذ علم النفس في جامعة محترمة نوبات متقطعة من الجنون ، مصحوبة بهوس متجدد ، ويموت والد زوجته من الغيظ ، وليس هذا — فيما اعتقد — شيئاً مألوفاً ، بل دعونا

نأمل ايضاً ان يكون من غير المألوف ان يتحول حب الزوجة الى كره مرير لان زوجها اصيب بمرض شديد ، وان يكون من غير المألوف ايضاً ان يصاب رجل بنزيف ، ويموت حين يتسلم رسالة بذيئة من زوجته ، فان صح ان مثل هذه الامور عادية فانا عاجز عن ان اقتنع بان اي شركة تأمين يبلغ بها حمقها حدّ الرضى بالتأمين على حياة رجل متزوج . وإذا قرأتم قصة لتشيخوف عنوانها The Helpmate فانكم ترون كيف يستغل هذا القصصي النهائية المفاجئة بمهارة ، وهي اليوم مما ينظر اليه القصاص باشمئزاز . لقد كان تشيخوف ذا سيطرة خارقة على فنية القصة وأود أن أعزو قلة النجاح عند تلاميذه في هذه البلاد الى أسباب منها أنهم لم يكلفوا أنفسهم دراسة ذلك العنصر في فنه .

ومن سوء الحظ ألا يألف الكتاب الانجليز كتابة القصة القصيرة بعد أن أحسوا أن القصة الطويلة أنسب لاظهار روح القصص لديهم. لأن الانجليز على عيّهم في الحديث، اذا تناولوا الاقلام او حركوا أصابعهم على الآلة الكاتبة جنحوا الى الاسهاب والتطويل؛ وليس لديهم احساس طبيعي بالايجاز وهو أمر لا غنى عنه في القصة القصيرة وليس لديهم احساس بالتناسب وهو أمر هام في شكلها. وهكذا وجد الميل الغالب على طبيعة الشعب الى الاسهاب كفايته في تلك القصص الطويلة الجسيمة التي لا شكل لها ، من قصص العهد الكفتوري ؛ وما تزال هذه القصص خير ما تقدمه بلادنا في ميدان الادب العالمي .

وقد نظر الكتاب الانجليز الى القصة القصيرة في الغالب نظرتهم الى شيء غير كبير القيمة ، يخلقونه في أوقات فراغهم ليكسب لهم بضعة جنيهات نافعة دون ان ينفقوا فيه جهداً كبيراً . ولا اعرف بين كتاب الانجليز من زاول القصة القصيرة جدياً ، كما يجب أن تزاول اذا كان لا بدّ فيها من بلوغ الابداع ، الا اثنين هما رديارد كبلنج وكاترين منسفيلد . وأحب أن أضيف الى هذين : هنري جيمس فمع أنه من مواليد أمريكا فان أكثر قصصه يعنى بالمشاهد الانجليزية . ومن المستحيل — فيما أتخيل — ألا يُقبل أحدٌ عرف هنري جيمس عن كثب ، على قراءة قصصه بحماسة ، فأنه يسكب صوته في كل سطر كتبه وان القارىء ليتقبل تعرّج أسلوبه وانحناءاته الطويلة وتصنيعه لأن هذه كلها أجزاء من ذلك السحر والرفق والفخامة التي كانت تميز هنري جيمس لدى كل من يعرفه . وعلى الرغم من كل ذلك فليس ثمة من يعجز عن أن يلمح شيئاً من التناقض الواضح بين تفاهة أكثر موضوعاته والأناقة الشديدة في اخراجها . ويبدو أنه لم يكن لديه أدنى شعور بأن موضوعه قد يكون أتفه من أن يستحق تلك الطريقة الجزلة الفخمة فقد كان كمن يهيء كل المعدات اللازمة لتسلق افرست ليستعين بها على تسلق تلة برمروز (Primrose) .

أما كاترين منسفيلد فانها كانت ذات موهبة صغيرة بارعة في الاستنتاج ، جذّابة شائقة ، ولم تكن لديها قوة كافية لمعالجة موضوع يحتاج موهبة ركينة في الابداع ، ولكن قطعها القصيرة تثير الاعجاب .

وأما رديارد كبلنج فانه الوحيد من بين سائر كتاب القصة القصيرة من الانجليز الذي يمكن أن يقف الى جانب أساتذة القصة في فرنسا وروسيا. ومع أنه ملك اعجاب الجمهور الكبير حين بدأ يكتب وظلّ يملك اعجابه منذ ذلك اليوم، فان رأي المثقفين فيه كان منذ البدء ينطوي على الاحتقار لأنه شهر بنزعة استعمارية كانت بغيضة لدى كثير من العقلاء ، وكانت بعض ميزات أسلوبه مما يزعج المتأنقين من القراء. ولكنه كان قصاصاً مدهشاً أصيلًا متنوع المادة خصب الابتكار ، وهذه الصفة الاخيرة اذا توفرت للكاتب عُدّت حسنة كبرى . وكان

قادراً على قصّ الحوادث بطريقة مثيرة روائية . كما كان تأثيره في جماعة الكتاب كبيراً – فترة من الزمن – ولكن ربما كان أثره أعظم في الناس الذين عاشوا حياة تشبه الحياة التي وصفها في قصصه . وحين كان يسافر المرء الى الشرق ، كان يدهش اذ يمرّ في طريقه بناس قد كيّفوا انفسهم حسب الحياة التي تحياها شخصيات ابتكرها كبلنج . يقولون ان شخصيات بلزاك كانت أصدق دلالة على الجيل الذي جاء بعده منها على الجيل الذي كان يعيش فيه وأنا اعرف من تجربتي الشخصية انه على مدى عشرين سنة بعد ان كتب كبلنج قصصه الأولى الهامة ، كان هناك اناس منبثين في نواحي العالم وما كانوا لولاه ليصبحوا على مـا هم عليه . فانه لم يخلق شخصيات فحسب بل خلق ناساً . والناس اجمالاً يعتقدون ان رديارد كبلنج جعل الانجليز اشد احساساً ووعياً بامبراطوريتهم ، ولكن هذا عمل سياسي لا شأن لي به هنا ، وانما يهمني في هذا المقام انه باستكشافه للقصة الغريبة فتح ميداناً جديداً خصباً امام الكاتبين . والقصة الغريبة هي التي تقع احداثها ومشاهدها في بلد بعيد يكاد لا يعرف عنـه جمهور القراء الا الشيء القليل ، وتصوّر ردّ الفعل الذي يتلقاه الرجل الأبيض عند استيطانه بلاداً غريبة كما تصور الأثر الذي يتركه في نفسه اتصاله بجنس آخر من الناس . ولقـد عالج الكتاب بعد كبلنج مثل هـذا الموضوع بطرق مختلفة ولكنه كان اول من جرى في هذا الميدان الجديد ، ثم لم يجبه احد بمثل مـا حباه من رواء رومانتيكي ولا جعله اشد اثارة ولا صوّره تصويراً حياً غنياً بالألوان . ولكبلنج نقائصه كأي كاتب آخر ، غير انه يظل على رغمها خير قصاص يمكن ان تفخر به بلادنا .

*

في بدء هذه المحاضرة لفت انتباهكم الى ان الكتاب يكتبون القصص حين يجدون جمهوراً يقرأ ما يكتبون . وقد تم ذلك الازدهار العظيم الذي احرزه الفن القصصي في القرن التاسع عشر والقرن الحالي بشيوع المجلات ، فلم يسبق ان اشتد الطلب على القصة القصيرة ولا دفعت اثمان عالية فيها ، ولا كان هنالك مثل هذا العدد الضخم من الكتاب . ولكن شمس المجلة تنحدر الى افول ، وكتب الجيب قـد اصبحت برخص اثمانها وحجمها المقبول تقدم للقراءة مادة اكثر اضطلاعاً بالحاجة الراهنة . واكاد اظن انـه لن يحلّ محلّ المجلة نوع آخر من الصحف كما حلت المجلة محلّ الحولية ولكن ليس من البعيد ان تغير المجلات طابعها فلا يعود صدرها يتسع للقصة القصيرة . بل لقـد بدأ الناشرون يفسحون المجال لمقالات ذات طابع اخباري لأنهم باتوا فريسة للقلق من التدهور في التوزيع واخذوا يرون انـه يجدر بهم في هذه الاحوال المؤلمة من حياة العالم ان يقدّموا لقرائهم غذاء أنفع من القصة .

غير أني لا أستطيع أن اؤمن بأن الناس سيفقدون رغبتهم في القصص لأنها رغبة فطرية في الجنس البشري ، وقد تجد هذه الرغبة ما يرويها عن طريق الراديو فيحل المستمعون حينئذ محل القراء ويقنع الذين تستهويهم القصة القصيرة بسماعها على أمواج الأثير . وعندئذ يكون فن القصص قد أتم دورة كاملة ، فقد بدأت القصة القصيرة – فيما يظن – بالحكاية التي يحكيها الصياد عند عودته من المرتفقات وهو جالس أمام النار في الكهف – موطن الانسان الأول – واذ قد قطعت القصة الشوط كله فانها تعود الى أصولها الأولى . ان راوي الحكايات وهو يجلس أمام المكبر سيقص القصة لعدد جم من الناس محتجب عن أنظاره ، ولكن ان تم ذلك فمن الصعب أن نفترض أن سامعيه سيكونون على حدة بالغة من الانتباه ان كان يقرأ لهم قصصاً تعتمد على تصوير الجو أو قصصاً دقيقة غامضة المعنى . واذن فستكون قصصه صريحة واضحة آسرة مدهشة روائية الروح ، ولا بد أن تجري بسرعة في خط لا ينقطع من البداية التي تثير الاهتمام والرغبة الى النهاية التي تشبع ما أثير في النفس من ميل الى الاستطلاع . وبالاختصار لا بد ان تكون القصص من نوع ما كتبه موباسان وكبلنج لا من نوع ما كتبه تشيخوف . وهذا شيء لم يحن حينه بعد .

وبعد ، فان تولستوي وتشيخوف وكتاباً آخرين تاثروا بهما او وصلوا بجهود انفسهم – مثل شروود اندرسون – الى نتيجة مشابهة – ان مثل هؤلاء الكتاب جميعاً قد اغنـوا الادب بمنتجات رائعة ، فان لم تدخل قصصهم تحت تعريف القصة القصيرة الذي استخلصته مما قاله «بو» فلا بد من تغيير هذا التعريف ليشملها ولأتقدم اليكم بهذا التعريف البسيط : القصة القصيرة قطعة من عمل الخيال لها وحدة في التأثير وتقرأ في جلسة واحـدة ، وانا اميل الى القول بان المحك الوحيد لجودتهـا هو قدرتها على الامتاع .

كلية الخرطوم الجامعية احسان عباس



زعيم الفلسفة الوجودية جان بول سارتر

زار دمشق الناقد الفرنسي المعروف الاستاذ جيتان بيكون مؤلف كتاب Panorama de la Nouvelle Litterature Française حيث القى سلسلة من المحاضرات ختمها بمحاضرة عن جان بول سارتر تناول فيها حياة هذا الكاتب وفلسفته بالشرح والعرض والتحليل وقد نشرت جريدة « الميادين » الدمشقية خلاصة وافية عن المحاضرة كما وعاها مندوبها الادبي وقامت هيئة تحرير الجريدة بترجمتها .

وقد رأينا اعادة نشرها في الاديب نظراً لمكانة الاستاذ بيكون الأدبية ولما لرأيه ونقده من اهمية لدى الاوساط الفكرية في فرنسا .

★

ولد جان بول سارتر سنة ١٩٠٥ ، وهو يعد الكاتب الذي يمثل عصره خير تمثيل ، والفيلسوف الذي يصغي اليه الناس اكثر من اي فيلسوف آخر ، وهو المؤلف المسرحي الذي تظفر آثاره بالنجاح الكبير ، وهو الى ذلك الناقد اللاذع في النقد.

تابع سارتر دراسته العالية في مدرسة المعلمين العليا وقد حصل على شهادة (الاجراجاسيون) في الفلسفة وهو في سن الثالثة والعشرين . وعندما اشتغل بالتدريس كان يحب ان يعطي دروسه في مقهى من تلك المقاهي القائمة في زوايا الشوارع اكثر من ان يلقيها ضمن جدران الصف ، ولقد قام بسياحة استغرقت عامين كاملين مر فيها بألمانيا حيث اتصل اتصالاً وثيقاً بالفلاسفة « الحادثيين » الالمان ، الذين كان لهم تأثير واضح على تفكيره.

وبالرغم من انه ضئيل الحجم ، ضعيف البصر ، مبهم التقاطيع فانه على جانب كبير من الدماثة واللطف ، ويتمتع بنصيب وافر من الشجاعة الادبية وحتى الشجاعة الجسمية .

ان المجد لم يبطره ، وان شهوة المال لم تستأثر بلبه. ويتحدث الناس انه يوزع على تلاميذه واتباعه الذين يأنس فيهم بوادر النبوغ آلاف الفرنكات مدفوعاً بكرم اصيل بعيد عن كل مظاهر المن والتفاخر .

وسارتر رجل قد الزم نفسه بمعالجة جميع مشاكل هذا العصر وهو يهدف الى الاتصال باكبر عدد ممكن من الناس وقد نجح في ذلك واجتذب اليه الجماهير وسيله الى ذلك : الكتاب والرواية والمسرح والسينما والراديو والصحافة وقاعة المحاضرات .

واذا اضفنا الى ذلك نهمه الى المطالعة مما جعله على اتصال بكل ما تقذف به المطابع ، وحبه للاسفار ، اذ زار جميع بلاد اوروبا كما زار امريكا وافريقيا . فهو فيلسوف وروائي ومؤلف مسرحي وصحفي .. انه متعدد المواهب والكفاءات ويحتل مكانا لا ينازعه عليه احد في مضمار الفكر والادب الفرنسيين المعاصرين.

فلسفة سارتر

كانت مؤلفات سارتر الاولى عبارة عن دراسات فنية وهي: التخيل ، دراسة حول نظرية للعواطف ، المتخيل . اما مؤلفه الفلسفي الاول فهو « الوجود والعدم » وقد استطاع ان يجذب اليه جمهوراً كبيراً .

وترتبط فلسفة سارتر بفلسفة كير كيكارد ، وهوسرل ، وهيدكر . ومنذ عهد افلاطون نجد ان الفلسفة التقليدية تعطي الى كل شيء جوهراً ، اي مجموعة من الصفات المحدودة ، ووجوداً حقيقاً في العالم . ان جوهر التمثال يسبق وجوده ، فالمثال يتخيل في ذهنه اشكال التمثال الذي يريد ان ينحته وفق الصورة التي تخيلها له .

اما بالنسبة الى ديكارت واتباعه فان الانسان ينبثق عن جوهر الطبيعة الانسانية. وهكذا فان الجوهر يسبق الوجود. ولكن الوجودية قلبت هذا المفهوم واعلنت بان الوجود بالنسبة الى الانسان ، فالانسان وحده ، يسبق الجوهر ، الوجود هو مطلق لا يحتاج الى اثبات ولا الى استنتاج . الانسان يوجد اولاً ، ثم يكون هذا او ذاك . بالتجربة والكفاح والألم والاختيار ، يتكون الانسان ويتبلور الخلق وتتحدد الغاية شيئاً فشيئاً . تعريف الانسان وتحديده مفتوحان دوماً انه حالة رجراجة ، اي انه خاضع الى مجموعة من الشرائط المادية والتاريخية . ووحدة سلوكه هي التي تحدده . فلا القيم ولا الاخلاق تسبق وجود الانسان ، بل على كل فرد ان يقرر ويختار في كل حالة من الحالات وان يقيم سلماً من عنده للقيم .

وعندما يشعر الانسان انه وحيد قد ترك في عالم لا يلتفت اليه او هو ضده ، وانه دون عون ولا مساعدة ، ولا غاية له

الا التي يحددها لنفسه ، ولا مصير له الا الذي يصنعه بنفسه ، وانه من السخف ان ينتظر العون من الغيب او من الناس ، وانه لا يجب عليه الاعتماد الا على نفسه ، عندئذ يستطيع التصرف بقوة ونشاط ذلك ان الامل هو اسوأ ما يعيق عن الحركة والعمل .

وهل يجب ان نأمل بان مشاكلنا تحل من نفسها ، وان اعداءنا يمدون الينا ايديهم ، او ان الطبيعة تمدنا من نفسها بخبزنا اليومي ؟

اذا كنا نأمل بكل هذا فما علينا الا ان نشبك الايدي . الانسان لا يستطيع الارادة الا اذا ادرك انه لا يستطيع العثور على مساعدة الا من نفسه .

فهذه المعرفة الحدسية لحالته ، وهذا الشعور العاري والواضح بحقيقة المصير الانساني ، هو ما يسميه سارتر باليأس . وهكذا فان الحرية الانسانية هي في الضفة الاخرى من برزخ اليأس .

وفكرة الحرية غدت الفكرة المهيمنة على الفيلسوف والروائي وهي النسيج الذي حيكت الحياة منه. ذلك ان عدم الاختيار هو اختيار ايضاً. الحرية ليست اختيارية، يجب ان تظهر كل لحظة فهي لا تنقطع ابداً ، انها مستمرة. والانسان في تبدل مستمر فهو في كل برهة يستطيع ان ينساق الى هوة العدم اي ان يطرح جانباً حياته الماضية وان يختار حياة اخرى. والانسان هو الشخص الوحيد الذي يأتي العدم بواسطته الى الوجود. ومن هنا كان ضيق الانسان وكان يأسه .

ولكي يتملص الانسان من يأسه اتخذ طريقة الهرب من نفسه ، فهو يريد ان يختبىء ، ان يتخلى عن حريته اما بالالتجاء الى الماضي او الالتصاق بالمستقبل واما بالتجرد عن شخصيته كي يصبح كهذه الصور المتحركة .

ولكن الانسان بممارسته حريته الكاملة يصبح امام المسؤولية الكاملة . فعندما يختار لنفسه فهو في الوقت ذاته يختار من اجل الآخرين .

فهذه الفلسفة التي تعيد الى الانسان كل مسؤوليته ، وتجعله سيد نفسه ، في الحياة وفي الموت ، هذه الفلسفة التي تقوم على العمل والجهد والاختيار والكفاح والتضامن ، تتراءى على انها الفلسفة الانسانية الممكنة الوحيدة .

آراء سارتر الاجتماعية والسياسية

ولنذكر هنا بانه ، بالرغم من سارتر ، فان بعض المظاهر قد لصقت بالوجودية . كالغرابة في الملبس والرقص في الكهوف والعكوف على تعاطي الكحول ، كل ذلك عن طريق استثمار كلمة الحرية .

اما في الناحية السياسية ، فان سارتر قد اعلن ان هدف المجلة التي يديرها العمل على احداث بعض التبدلات في المجتمع . فهو لا يريد ان يتخلف عن زمنه ، الذي هو فرصته الوحيدة، لذلك تراه يحتضن جميع مشاكل الساعة ويبدي رأياً في كل مشكلة ويكون هو الرأي الفصل. انه يمد بالغنى والنور كل ما يمسه .

جان بول سارتر

وموقفه من المشاكل التي يتعرض لمعالجتها موقف فيه كل الشجاعة والاخلاص والاستقامة في التفكير . انه بحق رجل « الاعصر الحديثة » ومقالاته التي جمعها بعنوان « حالة » هي مثال الوضوح والشمول والجرأة .

ومع انه يساري النزعة فهو غير منتسب الى حزب من الاحزاب ، ويهاجم النظام الستاليني الذي يطلق عليه اسم تفسخ الثورة وهو من خصوم حزب الهند الصينية والاستعمار بوجه عام . ويهاجم الولايات المتحدة لموقفها من قضية الزنوج . وقد حرم الفاتيكان تداول كتبه لموقفه الوثني اللاديني .

الروائي والمؤلف المسرحي

لم يخضع سارتر الى تأثير « باررس » كما خضع من سبقه من الكتاب ، بل تأثر بكافكا ودوس باسوس ، وفولكنر وجماعة « الحادثين » الالمان . ويعد انتاجه الادبي في الذروة من الادب المعاصر فلقد اصدر « القرف » سنة ١٩٣٨ وبها اكتشف عالمه الخاص . اما قطعه المسرحية فقد ظفرت بنجاح عالمي وهي : « اجتماع سري » « الذباب » « العاهرة المحترمة » « اموات بلا قبور » « الايدي القذرة » « الله والشيطان » . وتضم مجموعة « الجدار » قصصاً لم يكتب مثلها في القوة والاثارة اما «طرق

الحرية » فتعد بنظر بعض النقاد احسن ما كتب في القصة الفرنسية المعاصرة .

وسارتر ناقد ايضاً من الطراز الاول فكتبه عن بودلير وجان جينه تدل على اتساع عبقريته وشمولها .

ولكن كتاباته تنقصها تلك الطلاوة السحرية والانطباعات الشخصية والاناقة اللفظية . انجمال الاسلوب لا ينفصل عن قوة الفكره واشراقها ؛ فسارتر هو اول كاتب كبير لا يصطنع اسلوباً من الاساليب ، ورأيه في ذلك ان الكاتب بما يقول لا بالطريقة التي يصطنعها في القول . فالكتاب هم في العادة يجنحون الى الشعر ، والفلاسفة يحلقون في البعيد والمطلق . اما سارتر فيحاول قبل كل شيء ان يكون انساناً وان ينقل الينا تجربة عاشها ، تجربة حية عميقة غنية ، وان يلقي على الاشياء ، مع ذلك ضوءاً موضوعياً بعيداً عن النوازع الشخصية لكي يقدم للناس الحقائق الواضحة .

ليست « القرف » مجرد رواية ذات موضوع معين بل هي تصوير للانسان والعالم تصويراً تتمثل فيه المفاهيم المعاصرة بالانسان والعالم هما شيئان منفصلان عن بعضها والواحد غريب عن الآخر . ثم ان الحقيقة المجردة شيء محال قلق وجراح ، والشمس رمز الشؤم ، والربيع تخمر سيىء ، والبحر اتساع بارد اسود . والارض تهرب تحت اقدامنا في جميع الجهات . فهل يكون « القرف » هو الحالة الوحيدة التي يتخذها الانسان امام هذا العالم ؟ ربما ! ولكن لا يمكنه ان يبقى امام هذا العالم الذي يسد عليه المنافذ ويضغط عليه ، امام الفراغ والعدم . يجب ان يهتك ستر جميع الاكاذيب ويتحرر منها . هو لا يستطيع ان يتلاءم مع الافكار التقليدية التي سادت في عصرها: كالمفهوم الاجتماعي ، والمفهوم الغيبي ، وفكرة القيم الاخلاقية فمنذ ان اعلن نيتشه افول نجم الغيبيات ، كل شيء قد اصابه التبديل والتغيير ، واصبحنا نعيش في الفراغ . نعم هناك الفن وهناك الموسيقى . ولكن سارتر لم يستأثر به عالم الفن . هناك كلمة لم تظهر في رواية « القرف » ولكنها اخذت تسيطر في المؤلفات التالية ، هذه الكلمة هي « الحرية » فاذا داخل المرء شعور بانه اصبح كالفراغ بدون ركيزة او قيمة اوتبرير معناه انه قد تحرر . فتخوف المرء وغمه يربانه الهوة السحيقة التي تمتد امامه لانه اصبح حراً : والحرية هي الكلمة الخصبة الموحية التي تجعل الانسان يجابه الحياة . ذلك ان الحياة تبدأ في الضفة الاخرى من بؤرة اليأس . فمن حرية الانسان ينبثق المعنى الذي يخلعه على وجوده . فابطال « طرق الحرية » يعلنون انهم سيأخذون الحياة على عهدتهم . سيختارون ويكونون موضع الاختيار ؛ انهم مسؤولون عن انفسهم . واذا كان في اختيارهم بعض التناقض فيكون ذلك بدافع الحرية التي هي وحدة لا تتجزأ والتي هي المقياس المشترك للوجود الانساني .

ولكن هل الحرية مخرج ومنجاة ؟ والى اين تقود طرق الحرية ؟ فالبطل السارتري يمكنه ان ينفصل عن العالم وينكر كل ما يضغط عليه ويضايقه ولكنه هل يمكنه ان ينفصل عن الحالة الجسمانية التي تجد في الغريزة الجنسية لذتها القصوى ؟

ان مؤلفات سارتر لم تصل بعد الى نهايتها . وهي تخبىء لنا بعض المفاجآت . وسارتر الذي تتبع ما خطه فولتير وزولا في حقل الادب الفرنسي ، يشغل اليوم المكان الذي كان يشغله اندره جيد سنة ١٩٢٨ اما في مجال الفكر فانه يشغل المكان الذي ظل خالياً بعد وفاة برجسون .

جبنائيل يكوند

— بقية المنشور في صفحة ٦ —

*

بينها وبين الجلادين صنفاً ثالثاً من البشر كل همهم النضال بواسطة تعاطف فعال ضد بلايا السماء والارض . وهؤلاء القديسون الجدد المحرومون من العفو ليسوا بحاجة حتى الى الحب والتشجيع وهم يبذلون جهدهم لكي يكونوا « اطباء » . وكامو يقدم لنا بضعة اوجه مختلفة من هؤلاء القديسين الجدد : تارو وريو المناضلان لمقاومة الوباء ، وحتى (جران) مستخدم البلدية المشغول قبل كل شيء بترتيب جملة كبداية لقصته التي يريد كتابتها ، والعجوز الاسباني المصاب بضيق النفس والذي يقضي ايامه بنقل الحمص من آنية الى اخرى ، وكذلك العجوز الصغير الذي يتألف جنونه الهادىء من البصق على القطط . والكتاب كله كما قلنا وصف لنضال بضعة اشخاص ضد آثار شر مستطير لا يستطيعون حياله شيئاً . وهو ايضاً سرد لحوادث تقع لجماعة من الناس سلبيين بصورة عامـــة تتصرف فيهم بقسوة قـوى تتجاوزهم ولا يستطيعون حيالها شيئاً ايضاً . غير ان الطاعون يبدو في الواقع كحالة اكثر منه كحادث معين وهذه الحالة تسبق الوباء وتعقبه اي انها مستقلة عنه . (فتارو) يكتشفها اثناء جلسة في محكمة التميز حيث يستدعيه ابوه المدعي العام. وهو في حديثه عن هذا الاكتشاف يعلن لريو قائلاً « لم اكن اريد ان اكون مصاباً بالطاعون » ثم يضيف بعد قليل « أني اعلم حق العلم بان كل واحد يحمل هذا الطاعون في نفسه . لأنه ما من شخص ، ما من شخص في العالم سالم منه . » انه مرض يصيب الناس مع حياتهم الاجتماعية ، وهؤلاء الذين — مثل تارو — يريدون الافلات منه يعرفون بان ليس هنالك شيء يستطيع انقاذهم سوى الموت . انهم يضعون انفسهم وراء العالم وخارج (التاريخ) ويحكمون على انفسهم بنفي نهائي . وهم يعيشون لا يهدفون إلا الى مقـــاتلة الشرّ لدى الآخرين ومن دون وهم وبصورة خاصة من دون أمل .

لقـد قلنا بان البير كامو في هذه المرحلة الجديدة قد وضع قواعـد اخلاقية للعمل . فهو قـد جعلنا نفلت من شلل العبث الذي كانت تنادي بـه « اسطورة سيزيف » و « الغريب » . واننا نعرف الآن بان المشاكل الاخلاقية التي يصفها في (الطاعون) هي مشاكل الانسان الكبرى ، وان هذه الدرامة التي ينطوي عليها هذا الكتاب تعود لنا في الحقيقة : انها مأساة الحياة في عالم شبيه بقعر مركب محشو بالمتفجرات قد تكون اقل حركة فيه سبباً لنسف كل شيء . ومن هنـا منشأ التصميم لدى كامو برد الاتجاه الاخلاقي الى اعمال لا يمكن ان ينشأ عنها اي شر : وهي اعمال الفهم والنجدة . ولكن هل تكفي مثل هذه الاعمال لبناء الانسانية والقضاء على الشر ؟

اننا نشك كثيراً في ان تكون لاخلاق عدم التدخل هذه القدرة على زعزعة العبث والشر في العالم. إن ارادة النضال ضد البلية ليست بكافية : بل يجب ان نعرف ماذا يمكن ان تكون عليه حياة انسانية متحررة من البلايا . وان هذا الانسان الذي انقذ من الكارثة ، يجب انقاذه بصورة خاصة من عبث حياته . ان الاعتناء بالمرضى والفهم و « ألا يكون الانسان حامـــلاً للجرائم » كل هذه اخلاق سلبية ونحن نريد اهواء تجعل من الحياة الانسانية لا شيئاً يجب الدفاع عنه فقط ، بل شيئاً يحب ويفخر به . ويبدو ان كامو لا يذهب الى نهاية تمرده واهوائه ، بل كثيراً ما يخامر المرء شعور بوجود حيوية متوقفة لديه وقوة متعطلة في منتصف الطريق . ولذلك فاننا لا نقنع بهذه المرحلة الاخيرة التي يقلنا اليها البير كامو ، ونأمل ان يوصلنا الى مرحلة اكثر ايجابية منها وهذا ما نرجو ان يحققه لنا في المستقبل .

بغداد — نهاد التكرلي

حاشية : — لا بد أن اذكر باني مدين بكتابة هـــذا المقال الى نقاد ومفكرين فرنسيين كثيرين ، وددت ان اذكر بعضهم لكي يرجـــع الى كتاباتهم من يريد التوسع في الاطلاع على فكر البير كامو وعلى تحليل مؤلفاته :

١ — القسم الذي خصصه الناقد الفرنسي « جيتان بيكون » لالبير كامو في كتابه القيم «Panorama de la nouvelle littérature française»

٢ — الفصل الذي كتبه الناقد الفرنسي « موريس نادو » في كتابه (الادب الراهن) Littérature présente وعنوانه « البير كامو واغراء القداسة »

٣ — المقال الذي نشره جان بول سارتر في كتابه « مواقف : الجزء الاول » وعنوانه « تفسير (الغريب) »

٤ — العدد الخاص الذي اصدرته مجلة « Esprit » يناير ١٩٥٠ والذي كرست القسم الاهم منه لدراسة فكر كامو .

٥ — المقال الذي كتبه الناقد الفرنسي « اندريه روسو » وعنوانه « البير كامو وفلسفة السعادة » والمنشور في كتابه عن ادب القرن العشرين .

٦ — المقالان المنشوران في مجلة «العصور الحديثة» Temps Modernes عدد نوفمبر ١٩٤٧ واحدهما بقلم الناقد الفرنسي المعروف «ايتامبل» وعنوانه « أطاعون أم خطيئة ؟ » والثاني بقلم جان بويون وعنوانه « تفاؤل كامو » .



اول ابريل ١٩٥٤ – استقال الدكتور علي ماهر من رئاسة لجنة الدستور المصرية .

– سلم الاتحاد السوفياتي الى فرنسا وبريطانيا وامريكا مذكرة تنطوي على اقتراح جديد بشأن مشروع الضمان الجماعي الاوروبي وقد اعلن في موسكو ان الاتحاد السوفياتي قد اقترح في مذكرته الانضمام الى الحلف الاطلسي .

– صدر بلاغ في باريس يعلن عزل الماريشال الفونس جوان من مناصبه وهي نائب رئيس مجلس الحرب الاعلى ومستشار دائم للحكومة الفرنسية في مجلس الدفاع الدائم . ويقول البلاغ ان جوان فشل فشلاً ذريعاً من حيث السلك العسكري .

٢ – تسود العالم باسره موجة من الذعر والهلع بسبب تفجير القنبلة الهيدروجينية وقد صرح البنديت نهرو رئيس وزراء الهند ان على الدول الكبرى ان توقف تفجير القنابل الهيدروجينية واكد ان شعوب آسيا قلقة جداً لان بلادها كانت وما تزال تختار مكاناً لتجربة الاسلحة الفتاكة المدمرة .

– وقعت تركيا والباكستان في كراتشي معاهدة السلامة المتبادلة التي اعتبرها المراقبون نواة حلف الشرق الاوسط الجديد .

– اعلنت القيادة الفرنسية في الهند الصينية ان قوات الثوار النظامية قد غزت مملكة الكمبودج .

٥ – انتهت زيارة الملك سعود عاهل المملكة العربية السعودية للكويت بعد ان استمرت اسبوعاً .

٧ – اجتازت قوة يهودية الحدود المصرية قرب دير البلح فتصدت لها قوة مصرية وارغمتها على الانسحاب . وقد طلبت مصر من الجنرال بنيك كبير مراقبي الامم المتحدة تأليف لجنة خاصة للبحث في ١٣ مسألة نشأت اخيراً عن الاعتداءات اليهودية على قطاع غزة .

٨ – بدأت محكمة الاستئناف الايرانية النظر في طلب الاستئناف الذي تقدم به الدكتور مصدق .

– اذاعت السلطات الاردنية ان القوات الاسرائيلية ماضية بخرق الهدنة وقد اطلقت اخيراً هذه القوات النار اربع مرات متوالية على مراكز عربية في القدم كما ان الطائرات النفاثة الاسرائيلية عبرت نهر الاردن فوق الاراضي العربية .

– اجتمع مجلس الامن الدولي للنظر في الشكوى الاردنية التي قدمها لبنان المتعلقة بحادث الهجوم الاسرائيلي على قرية نحالين وكذلك في الشكوى اليهودية التي تتهم الاردن بخرق اتفاقية الهدنة لانها رفضت اجراء مفاوضات مباشرة معها وقد طالبت الدول العربية بحصر البحث في الاعتداءات اليهودية .

– اعلنت لجنة الطاقة الذرية الامريكية ان التجربة الثالثة للقنبلة الهيدروجينية قد جرت بنجاح في السادس من الشهر الحالي في الباسفيك .

١٠ – اعلنت وزارة الخارجية البريطانية رسمياً ان ثماني شركات بترولية كبرى توصلت الى اتفاق بشأن العودة الى استثمار بترول ايران .

– صرح السيد ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان قائلاً : اننا نرى ان الوقت قد حان لاشتراك الدول العربية والدول الاسلامية الاخرى في دراسة مشكلة فلسطين . وقال ان الحكومة الباكستانية تشعر بقلق بالغ واهتمام كبير الموقف الحالي بين العرب واسرائيل لانها تعد فلسطين دائماً اخطر مشكلة في الشرق الاوسط .

١١ – وصل الملك سعود الى البحرين في زيارة رسمية تستغرق ثلاثة ايام .

١٣ – وصل الماريشال تيتو رئيس جمهورية يوجوسلافيا الى انقرة في زيارة رسمية لتركيا .

١٤ – وصل الى كراتشي الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية في زيارة رسمية للباكستان تستغرق عشرة ايام .

– كذب ناطق بلسان وزارة الخارجية الباكستانية النبأ القائل ان الباكستان تتفاوض مع الافغان لتحقيق الاتحاد بينهما . وقال ان ممثلي الدولتين بحثوا طرق تحسين العلاقات القائمة بينهما .

١٥ – قرر مجلس الثورة في مصر ان يحرم من الحقوق السياسية والمدنية لمدة عشر سنوات كل من سبق ان تولى الوزارة في الفترة من ٦ فبراير ١٩٤٣ الى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكان منتمياً الى حزب الوفد او حزب الاحرار او حزب السعديين . وهذا القرار يتناول عدداً كبيراً من الساسة في مقدمتهم مصطفى النحاس ومكرم عبيد وفؤاد سراج الدين ومحمد حسين هيكل ومحمد صلاح الدين واحمد نجيب الهلالي وعبد الرزاق السنهوري وابراهيم عبد الهادي وغيرهم .

١٦ – استطاعت القوات الوطنية الفيتنامية التي تهاجم قلعة ديان بيان فو الفرنسية في الهند الصينية ان تفتح ثغرة كبيرة في خط الدفاع الاساسي للقلعة .

١٧ – قدم اربعة من الوزراء المدنيين في الحكومة المصرية استقالاتهم الى مجلس قيادة الثورة .

١٨ – اصدر مجلس قيادة الثورة بمصر قراراً بتسمية البكباشي جمال عبد الناصر رئيساً لمجلس الوزراء وكان يتولى اللواء محمد نجيب هذا المنصب بالاضافة الى منصب رئاسة الجمهورية .

١٩ – اعلن السينيور ماغاياي رئيس جمهورية الفلبين ان بلاده على استعداد تام للاشتراك في حلف للدفاع عن المحيط الهادىء وانه يؤيد كل اقتراح بهذا المعنى ضمن الشرطين التاليين : اولا ان تقدم الولايات المتحدة معونة سريعة الى الفلبين في حال وقوع عدوان . ثانياً : ضمان منح الهند الصينية تمام استقلالها .

– صدر مرسوم جمهوري بتعيين البكباشي جمال عبد الناصر رئيس الوزراء حاكماً عسكرياً عاماً لمصر بدلا من الرئيس محمد نجيب .

٢٠ – نوه البكباشي جمال عبد الناصر بالحلف التركي الباكستاني فقال ان هذا الحلف لن يأتي بفائدة ما دامت الدول العربية بعيدة عنه . ان الدول العربية ترفض الانضمام الى اي حلف ما دام الغربيون لا يعترفون بسيادة هذه الدول ولا سيما السيادة المصرية .

٢١ – قدم جورجي مالينكوف استقالة حكومته الى مجلس السوفيات الاعلى الجديد تبعاً لنص الدستور . وقد كلفه المجلس بتشكيل الحكومة الجديدة .

– قدم رئيس الوزارة الايرانية الجنرال زاهدي استقالة حكومته الى الشاه بموجب الدستور عند بدء كل فترة نيابية جديدة . وقد كلفه الشاه تأليف الحكومة الجديدة .

٢٢ – قدم الدكتور فاضل الجمالي استقالة الوزارة العراقية الى الملك فيصل .

٢٣ – الف السيد فان اركر زعيم الحزب الاشتراكي الوزارة البلجيكية الجديدة .

– اعلنت محكمة الاستئناف العسكرية في طهران صلاحيتها للنظر في قضية الدكتور مصدق .

دار ريحاني للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان
تلفون ٢٨٧٥٧